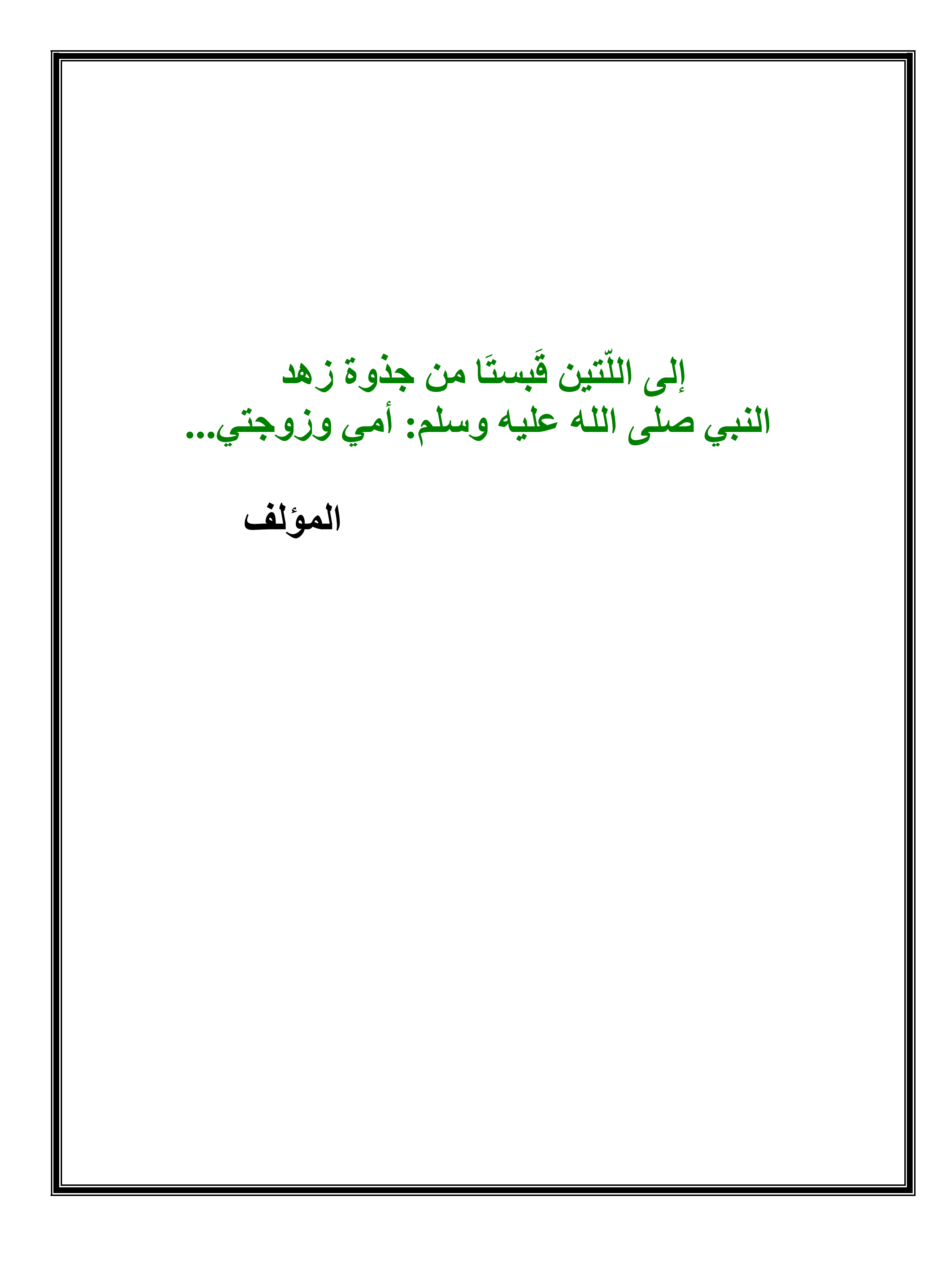
منهاج الزهد

في

حياة الرسول

صلى الله عليه وسلم

السيد إبراهيم أحمد



إلى اللّتين قَبستَا من جذوة زهد
النبي صلى الله عليه وسلم: أمي وزوجتي...

المؤلف

محتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد الله تعالى الذي هدانا لدينه الحنيف، وشرعه الشريف، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم الزاهد العفيف، الذي أمرنا بطاعة الخبير اللطيف.. فأصلي وأسلم عليه كما ينبغي أن يُصلىَ عليه، وعلى آله وأصحابه، ومن سار على نهجه، واقتفى أثره إلى يوم الدين، أما بعد:

لقد ارتبك العقل المسلم أمام فقر الرسول صلى الله عليه وسلم حتى صار الديدن عند أغلبهم أن الإسلام إنما يدعو إلى الزهد، وأن الفقر قرين الإيمان،

وكلما ازداد فقرك كلما ضمنت الحظوة الكبرى في مكانة جيدة ومقام أمين في الجنة.

ومن أسفٍ أن الخطاب الديني كرس لهذا الفكر عبر الخطاب الرسمي، وعبر الطريقة الصوفية، وعبر الخطاب والطريق السلفي على حدٍ سواء، حتى انمحت الفروق الظاهرة بين القعود عن طلب الدنيا، والركون إلى أمر الدين، واختلطت المفاهيم بين ما يريده الإسلام والذي وضحه كتاب الله العزيز، والسنة الشريفة الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين ما هو قارٌ في الأفهام تباينًا كبيرًا.

ولا أستطيع تحميل المجتمع المسلم بكل التبعة التي تبناها بالتبعية عبر تاريخ طويل من كتب السابقين الذين روجوا لها، وأشاعها من بعدهم، ومن هنا فسنحاول عرض مواقع الالتباس بين الفقر والزهد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهل كان الرسول صلى الله عليه وسلم فقيرًا أم زاهدًا؟، وكيف نقل مفهومه صلى الله عليه وسلم عن الزهد إلى كل من حوله بدءًا من أسرته ثم إلى الصحابة رضوان الله عليهم، عبر وسائل الاقتداء والتطبيق.

أما لماذا منهاج الرسول صلى الله عليه وسلم وليس المنهج؟.. والجواب: المنهج يعني: أسلوبًا في التفكير، وخطوات عملية منظمة تهدف إلى حل مشكلة أو معالجة أمر من الأمور..وهو برنامج عمل في البحث العلمي، وفي نقل النظري إلى التطبيق، وفي التخطيط للمستقبل وفق نظرة بصيرة، أما المنهاج هو الطريق أو الشريعة، في حين أن المنهج طريقة في الاستدلال. المنهاج أسلوب حياة، نظام أخلاقي واجتماعي وسياسي، في حين أن المنهج أقرب إلى طريقة النظر. ولذا كان المنهاج هو الأصوب والأقرب لخطة ومنهج الكتاب الذي بين أيديكم.

فمِن الله تعالى صاحب العطايا والمنن، أطلب أن يتفضل فيمُن على عبده بمدد التأييد، والسداد والمعونة في إتمام ذلك العمل على الوجه الذي يرضيه عني، والذي أبتغي به رضاه سبحانه، وأن يكون فيه النفع والفائدة للإسلام وأهله من المؤمنين والمؤمنات.

نسأل الله تعالى أن يعيننا فنكون من المتقللين الزاهدين، وأن نفهم الزهد على وجه اليقين، وألا يكون على حساب الدنيا أو الدين، وأن يجعل ما كتبناه في ميزان حسناتنا يوم الدين.

السيد إبراهيم

الباب الأول

الزهد ..مفهومه وغاياته

مفهوم الزهد في الإسلام

زهد لا يعرفه الإسلام

ديننا لايدعو إلى الفقر

مفهوم الزهد في الإسلام

لا تكمن خطورة تناول قضية "الزهد" في المصطلح، بل تكمن في كوْن تبني المصطلح تبني لمنهج، وهذا المنهج ليس فكريًا نظريًا بل يتخذ صورًا شتى في التطبيق، وارتباط الزهد بالدنيا هو المكمن الأخطر في تلك القضية؛ إذ شيوع مثل هذا الفكر غالبًا ما يؤدي إلى القعود عن العمل، أو العيش في الدنيا على الكفاف، والرضا بأدني مستويات العيش، مع قتل طموح النفس في التحسين والانتقال إلى درجات أعلى، على اعتبار هذا الصنيع من الطمع المذموم، ومفارقة القناعة.

وعلى هذا فلم يُشوَّه لفظ أو مصطلح في الإسلام مثلما شُوِّهَ مصطلح "الزهد" الذي شاع استخدامه كثيرًا في اللغة: من الزهد في الشيء، والزهد عنه أي بالإعراض عنه وتركه لاحتقاره أو لارتفاع الهمة عنه، ويقال شيء زهيد: أي: قليل حقير، ولهذا توسع من توسع في تحقير الدنيا والزهادة فيها لا من باب التعريف اللغوي فحسب وإنما أتى مسلكه استمدادًا من أحاديث وآثار عن الصحابة رضوان الله عليهم وتابعهم فيها التابعين زينت لهم ما ذهبوا إليه، دون الوقوف على فقه الصحابة رضوان الله عليهم، وما فقهه عنهم من اتبعهم من التابعين.

فهل كان مقصد الرسول صلى الله عليه وسلم من الزهد هو ما فهمه بعض القوم، واتخذوه ذريعة للبلادة والمسكنة، وترك الدنيا لأهل الدنيا، بينما هم من أهل الآخرة فليعملوا لها؟

وهل كانوا هم أفهم من أقوال ومقاصد الرسول صلى الله عليه وسلم خير من صحابته رضوان الله عليهم؟

وتأتي الإجابة الدامغة من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، والتي تدل على عميق فهمهم، وحسن تدبرهم لأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم:

ـ سمع ابن عمر رجلاً يقول: أين الزاهدون في الدنيا الراغبون في الآخرة؟ فأراه قبر النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر. فقال: عن هؤلاء تسأل.

ـ قال ابن مسعود رضي الله عنه لأصحابه: أنتم أكثر صلاة وصومًا وجهادًا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وهم كانوا خيرًا منكم. قالوا: وكيف ذلك؟ قال: كانوا أزهد منكم في الدنيا وأرغبكم في الآخرة. لقد جاءتهم الدنيا بالأموال الحلال فأمسكوها تقرباً لله تعالى وأنفقوها في خدمة دينه وإعلاء كلمته.

ـ قال أبو سليمان: كان عثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما خزانتين من خزائن الله في أرضه، ينفقان في طاعته، وكانت معاملتهما لله بقلوبهما وعلومهما.

ـ قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: ما أبعد هديكم من هدي نبيكم صلى الله عليه وسلم، إنه كان أزهد الناس في الدنيا، وأنتم فأرغب الناس فيها.

وحين يأتي تعريف الإمام ابن القيم للزهد بأنه: (سفر القلب من وطن الدنيا، وأخذه في منازل الآخر). يكون هنا قد أصاب كبد الغاية من الزهد في أن القلب منبعه، وأنه ليس غاية في ذاته، ولكنه وسيلة سفر (انتقال) ولهذا فقد حدد له ستة أشياء متعلقة به إن تحققت صار العبد زاهدًا، وإن لم تتحقق فلا يستحق ذلك العبد اسم الزهد حتى يزهد فيها وهي: المال، والصور، والرياسة، والناس، والنفس، وكل ما دون الله.

وعودًا على الفهم الصحيح للزهد عند الأنبياء صلوات الله عليهم، وعند الصحابة رضوان الله عليهم، يبين ابن القيم من فهمه الثاقب المستقى منهم، البيان الصحيح للزهد الذي يحث عليه الإسلام وينادي به، ويدعو إليه، فيقول: (وليس المراد رفضها ـ أي الدنيا ـ من الملك فقد كان سليمان

وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما ولهما من المال والملك والنساء مالهما، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم من أزهد البشر على الإطلاق، وله تسع نسوة، وكان علي ابن أبي طالب، وعبد الرحمن ابن عوف والزبير وعثمان رضي الله عنهم من الزهاد، مع أنه كان لهم من الأموال، وكان الحسن بن علي رضي الله عنه من الزهاد، مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحًا لهن، وأغناهم، وكان عبد الله بن المبارك من الأئمة الزهاد مع مال كثير، وكذلك الليث بن سعد من أئمة الزهاد).

ومن أحسن ما قيل في الزهد: (ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة – إذا أُصبتَ بها – أرغب منك فيها لو لم تُصبك)[١].

ولهذا فأن سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ استقام فهمه للزهد من سبره لغور جوهره ومضمونه، ويتأتى هذا من بيان تعريفه للزُّهْد فِي الدُّنْيَا بأنه: (قِصَرُ الْأَمَلِ، لَيْسَ بِأَكْلِ الْغَلِيظِ، وَلَا بِلُبْسِ الْعَبَاءِ)، والمتتبع لاستقائه هذا الفهم الصحيح من مشكاة فهم الصحابة رضوان الله عليهم حين قَالَ: (كَانَ مِنْ دُعَائِهِمْ: اللَّهُمَّ زَهِّدْنَا فِي الدُّنْيَا، وَوَسِّعْ عَلَيْنَا مِنْهَا، وَلَا تَزْوِهَا عَنَّا، فَتُرَغِّبْنَا فِيهَا).

بل ويسترعي انتباه القاريء استقرار المعنى الصحيح والفهم السليم للزهد من اجتماع تعاريف وإن اختلفت في مبناها إلا أن مؤداها واحد، من ذلك حين سأل أحدهم رَبِيعَةَ فَقَالَ: يَا أَبَا عُثْمَانَ مَا رَأْسُ الزَّهَادَةِ؟ قَالَ:(جَمْعُ الْأَشْيَاءِ بِحَقِّهَا، وَوَضْعُهَا فِي حَقِّهَا).

ولقد أظهر الزاهد عبد الرحمن العنسي المعروف بأَبَي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيَّ فهمه للزهد القائم على التولي لا التخلي، وعلى الإلتزام والمسئولية، لا على التخفف والراحة حين قال: (لَيْسَ الزَّاهِدُ مَنْ أَلْقَى هُمُومَ الدُّنْيَا، وَاسْتَرَاحَ مِنْهَا، إِنَّمَا ذَلِكَ رَاحَةٌ؛ إِنَّمَا الزَّاهِدُ مَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا، وَتَعِبَ فِيهَا لِلآخِرَةِ).

ولو تتبعنا الشروط الواجبة في الزاهد بحسب أقوال من ذاقوا الزهد واتخذوه منهاجًا لهم ما انتهينا، وسأكتفي هنا بما ذكره الإمام الحافظ الورع

الزاهد محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف المشهور بـ "النووي" في الزهد، فقد قال: (فَمَنْ أَخْرَجَ مِنْ قَلْبِهِ حُبَّ الرِّيَاسَةِ فِي الدُّنْيَا وَالتَّرَفُّعَ فِيهَا عَلَى النَّاسِ، فَهُوَ الزَّاهِدُ حَقًّا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَسْتَوِي عِنْدَهُ حَامِدُهُ وَذَامُّهُ فِي الْحَقِّ).

نعم، قد وردت أحاديث كثيرة، وآثار شهيرة، تُرَغِّب في الزهد والقناعة، وتُنَفِّر من التكالب في الدنيا، ولكن ليس معنى ذلك أن يكف المرء عن العمل المفيد المنتج الموسع لدائرة العمران، واستخراج ما بث الله في هذا الكون من خيرات وثمرات، بطريق الزراعة والصناعة وما أشبههما، وإنما معناه أن يكون مقتصدًا في الطلب فلا يضيْع دينه في تحصيل دنياه، ولا يجلب دنياه من حيث حرَّمَ الله، ولا يكون في سعيه وكده ظالمًا باغيا، ولا جبارًا طاغيا؛ وأن يكون في استمتاعه بما أنعم الله عليه معتدلاً: فلا يكون مقترفًا للحرام، ولا مسرفًا في تناول الحلال. هذا هو المذموم من أمر الدنيا [٢].

إذن فالزهد الحقيقي في الإسلام نابع من الوسطية التي تقع فضيلة بين رذيلتين، تلك التي لا تدعو إلى إقصاء الدنيا والهروب منها ومن مواجهتها، والركون إلى ركنٍ سحيق بدعوى الزهد فيها والسعي إلى الآخرة، ومن فعل ذلك فليس من الله تعالى ولا من رسوله صلى الله عليه وسلم في شيء، ولا فهم من الإسلام ــ الدين والحضارة ــ شيء.

ولسنا في زمن أحوج ما نكون فيه إلى الزهد من زمننا هذا الغارق في الماديات، والمتكالب على المتع، والمتفنن في صنع المفاتن بكافة الوسائل التقليدية والالكترونية على السواء، واستحداث الوسائل في استكثار الأموال من حلٍ ومن حرمة بالتحايل على شرع الله تعالى تارة والنزوع عنه ونبذه تارات، وصار النجاح محسوبًا بكم الملكيات دون البحث عن مصادرها، فالأهم الاستحواز عليها، وصار المعتصم بربه، الخائف على دينه، هو الخائب في جني الثمرات من أشجار العمولات والصفقات بكافة العملات، نقدًا أو بالشيكات.

الزهد اتصال بينابيع النبوة، وفطرة الإسلام التي فطر الناس عليها، هيَّ الاستمداد للطاقة الروحية، والنبل الأخلاقي، والشفافية، وانتزاع الإنسانية الرحيمة من الحيوانية المقيتة، ليس كسلاً أو تواني أو تراخي، أو قعود

الهمة عن السعي، بل السعي أوجب في تحصيل ما أحل الله تعالى، الذي يقول في كتابه العزيز: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)﴾[٣].

....﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا أي : مما رزقكم الله من الطيبات ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في ذلك. والإسراف، إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي، ولشره في المأكولات التي تضر بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفه والتنوق في المآكل، والمشارب، واللباس، وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فإن السرف يبغضه الله، ويضر بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات، ففي هذه الآية الكريمة، الأمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما، وعن الإسراف فيهما. يقول تعالى ـ منكرا على من تعنت، وحرم ما أحل الله من الطيبات ـ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ من أنواع اللباس، على اختلاف أصنافه، ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾، من مأكل، ومشرب، بجميع أنواعه، أي: من هذا الذي يُقدِم على تحريم ما أنعم الله على العباد، ومن ذا الذي يضيق عليهم، ما وسعَّه الله؟ وهذا التوسيع من الله لعباده، بالطيبات، جعله لهم ليستعينوا به على عبادته، فلم يُبحه إلا لعباده المؤمنين، ولهذا قال: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: لا تبعة عليهم فيها. ومفهوم الآية، أن من لم يؤمن بالله، بل استعان بها على معاصيه، فإنها غير خالصة له ولا مباحة، بل يعاقب عليها، وعلى التنعم بها، ويسأل عن النعيم يوم القيامة. ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نوضحها ونبينها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم الذين ينتفعون بما فصله الله من الآيات، ويعلمون أنها من عند الله، فيعقلونها ويفهمونها[٤].

إن الزهد الحقيقي في الإسلام ليس غاية في ذاته، بل هو وسيلة مُثلى تنشأ من قلب المؤمن الراضي بقضاء الله تعالى عن قناعة ورضا، وهذا الرضا ليس قاصرًا على مقامه في الوجود الدنيوي، بل يمتد معه حيث المأمول من وجوده الأخروي؛ إذ لا ينفصم عُرى الوجودين داخل نفسه وذهنيته انطلاقًا

من الأمر الرباني بعمارة الكون، والوعد الرباني بالموت والبعث والنشور والحساب.

فَمَنْ حَقَّقَ الْيَقِينَ، وَثِقَ بِاللَّهِ فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا، وَرَضِيَ بِتَدْبِيرِهِ لَهُ، وَانْقَطَعَ عَنِ التَّعَلُّقِ بِالْمَخْلُوقِينَ رَجَاءً وَخَوْفًا، وَمَنَعَهُ ذَلِكَ مِنْ طَلَبِ الدُّنْيَا بِالْأَسْبَابِ الْمَكْرُوهَةِ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ زَاهِدًا فِي الدُّنْيَا حَقِيقَةً، وَكَانَ مِنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا[٥].

هذه الثقة وذاك اليقين بالله لا يتحققان إلا بقطع العلائق عن الخلائق، والتعلق والرجاء بالله وحده تعالى اعمالاً لما جاء بالحديث الشريف عنه أنه صلى الله عليه وسلم، قال: ''اللهم اقذف في قلبي رجاءك، واقطع رجائي عمن سواك حتى لا أرجو أحدًا غيرك''[٦]. وهذا عين ما فهمه الفضيل بن عياض، حين قال: (أصل الزُّهد الرضا عن الله عز وجل).وقال أيضًا: (القَنُوع هو الزاهد وهو الغني، فمن حَقَّق اليقين وثِق بالله في أموره كلِّها، ورضي بتدبيره له وانقطع عن التعلُّق بالمخلوقين رجاءً وخوفاً.

ولم يخرج عن ذلك المفهوم الصحيح للزهد شيخ الإسلام ابن تيمية، فقال: (الزهد المشروع هو ترك كل شيءٍ لا ينفع في الدار الآخرة، وثقة القلب بما عند الله).
وقال أيضاً موضحًا الحد الفاصل بين الزهد الحق والزهد الباطل: (الزهد هو عمَّا لا ينفع إما لنفاء نفعه أو لكونه مرجوحاً لأنه مُفوِّتٌ لما هو أنفع منه أو مُحصِّل لما يربو ضرره على نفعه، وأما المنافع الخالصة أو الراجحة فالزهد فيها حمق).

إن الفكر الإسلامي لم يعرف أبدًا الفصل بين الدين والدنيا، بل أن مجال عمله يشمل الحياة البشرية كلها بكافة صورها وأشكالها وفي كافة ميادينها ومجالاتها، وذلك لأن الإسلام يرى أن الدنيا هيَّ قوام الدين[٧].

مثلما قال إمام الحرمين الإمام أبو المعالي الجويني: (فجرت الدنيا من الدين مجرى القوام)[٨].

إن المتأمل للأقوال التي أوردها ابن رجب في الجامع منسوبة لأصحابها ترتكز في جانب منها على العقيدة، وكذلك ما يشير منها بشكلٍ جلي إلى أن الزهد درجات يتصاعد بحسب قوة إيمان قائله ومفهومه للزهد؛ فمن حيث الجانب العقيدي والمعلوم بداهةً أن البشر من لدن آدم عليه السلام وحتى نهاية الدنيا إنما ينقسمون إلى من ينكر البعث إطلاقًا انطلاقًا من أنه ليس ثمة دارًا بعد الدنيا يحياها، ويسقط مع هذا الإنكار بالتبعية مبدأ الثواب والعقاب، بل يصبح الزهد ضربًا من جنون، لأن الدنيا في عرف المنكرين هيَّ غايتهم القصوى والتي يجب على المرء فيها أن يستوفي منها كافة حظوظه بشتى الوسائل ومن كل الطرق، ويستثنى منهم أولئك الذين يدعون إلى الزهد في الدنيا لأن الاستكثار منها موجب للهم والغم، وهذا غاية زهدهم ومبتغاه.

أما القسم الثاني وهم المؤمنون بالبعث والنشور والثواب والعقاب، المنتسبون إلى شرائع المرسلين، فينقسمون إلى ثلاثة أقسام: أما الأول، وهم القسم الأكبر والأكثر فأولئك ظالمي أنفسهم ممن مالوا إلى الدنيا، فأخذوها من غير وجهها واستعملوها في غير وجهها، وهؤلاء هم أهل اللهو واللعب والزينة والتفاخر والتكاثر، وأما الثاني، وهم المقتصدون فقد أخذوا الدنيا من وجوهها المباحة، وأدوا واجباتها، ثم أمسكوا لأنفسهم الزائد على الواجب، وإن اختلف القوم في كونهم زهاد من عدمه إلا أن صنيعهم هذا ينقص من درجاتهم في الآخرة بقدر توسعهم في الدنيا، وأما القسم الأخير وهم السابقون بالخيرات فأولئك الذين فهموا المراد من الدنيا وأنها دار عمل ودار ابتلاء فعملوا بمقتضى ذلك من التزود من الدنيا للآخرة التي هيَّ دار القرار، فكان صنيعهم فيها غير صنيع القسمين المتقدمين؛ إذ اكتفوا من الدنيا بما يكتفي به المسافر في سفره.

وكما ذكرت فأن أهل هذا القسم ـ السابقون بالخيرات ـ سينقسمون إلى قسمين أيضًا تبعًا لمفهومهم عن الزهد وتبعًا لقوة إيمانهم؛ فالقسم الأول منهم، أخذوا من الدنيا بمقدار سد الرمق فقط وهو حال كثير من الزهاد، وأما أصحاب القسم الثاني، فأولئك الذين أفسحوا لأنفسهم ـ أحيانًا ـ في تناول بعض شهواتهم المباحة لتقوى بها نفوسهم، وتنشط وتَجِّدَ لمزيد العمل.

وإذا حصرنا الزهد في أهله فقط، بان لنا أنهم لهم مع فضول الدنيا أقسام: فمنهم من يحصل له إقبال فيمسكه ويتقرب به إلى الله، وهذا كان فعل كثير

من الصحابة الأجلاء رضي الله عنهم، ومنهم من لم يحصل له شيء من الفضول وهو زاهد في تحصيله إما مع قدرته أو بدونها. ولا شك فأن أهل القسم الأول أفضل منه.

وهناك من الزاهدين في الدنيا الذين تعاملوا مع الزهد بحسب فهمهم له، سواء أكان هذا الفهم مبني على أصلٍ من الدين أو اقتصر على ذاتية الفهم فيهم بحسب علمهم وفقههم وخوفهم من الله تعالى، وأولئك هم الزاهدون في الدنيا بقلوبهم، ومنهم من زهد فيها راحة للقلب والبدن، ومنهم من خاف أن ينقص إقباله عليها حظه من الآخرة، ومنهم من خاف طول الحساب عليها، ومنهم من أجال بصره فيها فرأى حقارتها فاستقذرها، ومن أجال بصره أكثر فعاين تقلبها وفنائها ومزاحمة الأراذل في طلبها فزهد عنها، ومنهم من كان يخاف أن تشغله من الاستعداد للآخرة والتزود لها.

والمقصود من لعنة الله تعالى للدنيا في الحديث الذي أخرجه الطبراني من حديث أبي الدرداء مرفوعًا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (:الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلا مَا ابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ)[٩]. فالدنيا وكل ما فيها ملعونة: أي مُبعَدةٌ عن الله لأنها تشغل عنه إلا العلم النافع الدال على الله وعلى معرفته وطلب قربه ورضاه وذكر الله وما والاه مما يقرب من الله فهذا هو المقصود من الدنيا، فإن الله إنما أمر عباده بأن يتقوه ويطيعوه ولازم ذلك دوام ذكره[١٠].

زهدٌ لا يعرفه الإسلام

لا يعرف الإسلام إذن هذا الذي شاع بين أوساط بعض الصوفية من زهد الخروج عن الملكية الخاصة من مالٍ وعقارٍ وأموال، ونبذ العمل والهُيام في البيد والقفار، والعيش على شرب الماء وأكل الثمار، ولعل أخطر ما في هذا الطرح أنه مازال ساريًا تتناقله الأفواه عبر الأبواق في المساجد والحلقات، وقنوات التلفاز، وبعض الجرائد والمجلات، فيترك في العيون إعجاب، وفي الفهم اضطراب، وفي العقول تساؤل:من يعمل إذن؟ ولمن نعمل إذن؟

يقول الدكتور صبحي الصالح [١١]: (ومن الغريب حقًا أن بعض الزهاد والمتصوفين طوعت لهم أنفسهم وضع الأحاديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم ترغيبًا في صالح الأعمال، كأن هذه الثروة التي لا يدرك البيان وصفها من أقواله عليه السلام ونوابغ حكمه وجوامع كلمه لم تكفهم ولم تشف صدورهم. واشتغال هؤلاء بالعبادة، واشتهارهم بالزهد والعفة، يحمل العامة على الاغترار بما يختلقون، فخطرهم من هذه الناحية أشد هولاً مما نتصوره. ولقد شوَّهوا بجهلهم وجه الإسلام، وأدخلوا في تعاليمه ما ليس منه).

رصد الحافظ أبي الفرج بن الجوزي الحنبلي هذه الظاهرة التي انتهجها بعض غلاة المتصوفة في كتابه الماتع "صيد الخاطر، ولا أجد أكثر منه إحاطة وإلمامًا بهذه الناحية، فعولت على استقصاء ما كتب انتقاءً لا إجمالاً وحسبنا منها شواهد للدلالة على استهجان هذا المسلك لكي لا ينتهجه سواهم ممن يحسبونه مسلكًا إسلاميًا، أو منهجًا نبويًا.

يقول ابن الجوزي: (رأيت من أعظم حيَلِ الشيطان ومَكْره، أن يَخْبِطَ أرباب الأموال بالآمال، والتشاغل باللَّذات القاطعة عن الآخرة و أعمالها، فإذا علقهم بالمال؛ تحريضًا على جمعه، وحثًا على تحصيله، أمرهم بحراسته بخلاً به، فذلك من مَتين حيله، و قَوِيِّ مكره، ثم دفن في هذا الأمر من دقائق

الحيل الخفية، أنْ خَوَّف من جمعه المؤمنين؛ فَنفر طالب الآخرة منه، وبادر التائب، ُيخْرِجُ ما في يده، ولا يزال الشيطان يُحَرَّضُه على الزهد، و يأمره بالترك، ويخوفه من طرقات الكسب؛ إظهارًا لنصحه وحفظ دينه، وفي خفايا ذلك عجائب من مكره، وربما تكلَّم الشيطان على لسان بعض المشايخ الذين يقتدي بهم التائب، فيقول له: اخرج من مالك وادخل في زُمرَة الزهاد، ومتى لك غداءٌ أو عشاءٌ، فلست من أهل الزهد، فلا تنال مراتب العزم، وربما كرر عليه الأحاديث البعيدة عن الصحة، والواردة على سبب ولمعنى، فإذا أخرج ما في يده، وتعطَّل عن مكاسبه، عاد يُعَلِّقُ طمعه بصلة الإخوان، أو يَحْسُنُ عنده صحبة السلطان؛ لأنه لا يقوى على طريق الزهد والترك إلا أيامًا، ثم يعود فيُقاضي مطلوباته، فيقع في أقبح مما فر منه، ويبذل أول السِّلع في التحصيل دينَهُ وعِرضَه، ويصير مُتَمَنْدِلاً [متمسحًا] به، و يقف في مقام اليد السُّفلى)[١٢].

وليس من الزهد في الإسلام لبس المرقع من الثياب بدعوى التأسي بسلف الأمة، وفي هذا مغالطة لأنهم ما لبثوا المرقع إلا للضرورة الملجئة لذلك، وكما أن يكون في ارتدائه أن يكون لباس للشهرة، وقد يظن الظان أن لباس الشهرة لا يكون إلا في النفيس من الثياب، يؤكد هذا ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية: (وتكره الشهرة من الثياب، وهو المترفع الخارج عن العادة، والمتخفض الخارج عن العادة؛ فإن السلف كانوا يكرهون الشهرتين: المترفع والمتخفض، وفى الحديث: "من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب مذلة"، وخيار الأمور أوساطها)[١٣]. وعرَّف ابن تيمية ثوب الشهرة بأنه: (هو الثوب الذي يُقصد به الارتفاع عند الناس، وإظهار الترفع، أو التواضع والزهد)[١٤].

الزهد ليس في طمر نعمة الله وإخفاؤها عن الناس والظهور بمظهر متدنٍ يظن معه الظان بفقره وحاجته وضيق يده، فعَنْ أَبِي الأَحْوَصِ، عَنْ أَبِيهِ مَالِكٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، الرَّجُلُ أَمُرُّ بِه، فَلاَ يُضَيِّفُنِي وَلاَ يَقْرِينِي، فَيَمُرُّ بِي فَأَجْزِيه؟ قَالَ: لاَ بَلْ اقْرِهِ. قَالَ: فَرَآنِي رَثَّ الثِّيَابِ، فَقَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ مَالٍ؟ فَقُلْتُ: قَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ كُلِّ الْمَالِ مِنَ الإِبِلِ وَالْغَنَمِ، قَالَ: فَلْيُرَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكَ[١٥].

وليس كل ما تهواه النفس يُذم، وليس كل ما يُتزين به للناس يُكْرَه، وإنما يُنهى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه، أو على وجه الرياء في باب الدِّين .فإن الإنسان يجب أن يُرى جميلاً، وذلك حظ للنفس لا يلام فيه، ولهذا يسرِّح شعرَه، ويَنظر في المرآة، ويسوِّي عمامته، ويلبس بطانة الثوب الخشنة إلى داخل، وظهارته الحسنة إلى خارج، وليس في شيء من هذا ما يكره ، ولا يذم[١٦].

والذي يجتمع من الأدلة: أنَّ مَن قصد بالملبوس الحسن إظهار نعمة الله عليه، مستحضرًا لها، شاكرًا عليها، غير محتقر لمن ليس له مثله: لا يضره ما لبس من المباحات، ولو كان في غاية النفاسة[١٧]. عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ''كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ''[١٨].

والمؤمن التابع لهدي النبي خير الهدي صلى الله عليه وسلم، والقاريء لسيرته، والمتأسي به، عليه أن يلبس الجيد من الثياب، ويتزين ويتعطر؛ إذ كان صلى الله عليه وسلم يلبس أنواعًا من الثياب، ويتجمل للوفود، ولصلاة العيدين، ولصلاة الجمعة، مع البعد عن الإسراف والكبرياء.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ : ''مَا عَلَى أَحَدِكُمْ لَوْ اشْتَرَى ثَوْبَيْنِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ سِوَى ثَوْبِ مِهْنَتِهِ''[١٩] .

وأجاب شيخ الإسلام حين سأله سائل عن المتنزه عن الأقمشة الثمينة مثل الحرير والكتان المتغالى في تحسينه وما ناسبها: هل في ترك ذلك أجر أم لا؟، أنقل العبارات بنصها من إجابته الطويلة:

(من امتنع عن نوع من الأنواع التي أباحها الله على وجه التقرب بتركها: فهو مخطئ، ضالٌّ، ومن تناول ما أباحه الله من الطعام واللباس مُظهراً لنعمة الله ، مستعيناً على طاعة الله : كان مُثاباً على ذلك. .. وكذلك اللباس: فمَن ترك جميل الثياب بُخلاً بالمال: لم يكن له أجر، ومَن تركه متعبِّداً بتحريم المباحات: كان آثمًا، وإذا لبستَ ما أباحه الله لك من الثياب مظهراً لنعمة الله

عليه: فإنك مأجور على ذلك، ولو كانت ثيابك في غاية النفاسة والرفعة) [٢٠].

وفي الإسلام مجال فسيح لشئون الدين والدنيا، فهو لا يرحب بالرهبنة المسيحية ولا يدعو إلى التقشف الهندي.لم يضيق على المسلمين في شيء من متاع الدنيا[٢١]. والمستقر في فهم العلماء أن الدنيا حين ذمها الله تعالى لم يذمها لذاتها أو ذمًا مطلقًا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [٢٢] فإنما الحياة الدنيا لعب ولهو، إلا ما كان منها لله من عمل في سبيله، وطلب رضاه. فأما ما عدا ذلك فإنما هو لعب ولهو، يضمحلّ فيذهب ويندرس فيمرّ، أو إثم يبقى على صاحبه عاره وخزيه، كما جاء في تفسيري ابن كثير والقرطبي.

وبالتبعية فلا يجوز لنا أن نذمها لذاتها؛ لأنها أرض الغرس للآخرة، وموسم الحصاد، وسوق التزود بالطاعات ومن هنا يكون حب الدنيا لا ذمهاَ، قَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِيُّ: (كَيْفَ لَا أُحِبُّ دُنْيَا قُدِّرَ لِي فِيهَا قُوتٌ أَكْتَسِبُ بِهَا حَيَاةً أُدْرِكُ بِهَا طَاعَةً أَنَالُ بِهَا الْآخِرَةَ)[٢٣].

وهذا عين ما أجاب بعض العارفين حين سألوه: مَا هِيَ الدُّنْيَا الَّتِي ذَمَّهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ الَّتِي يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَجَنَّبَهَا؟ فَقَالَ: كُلُّ مَا أَصَبْتَ فِي الدُّنْيَا تُرِيدُ بِهِ الدُّنْيَا، فَهُوَ مَذْمُومٌ، وَكُلُّ مَا أَصَبْتَ فِيهَا تُرِيدُ بِهِ الْآخِرَةَ، فَلَيْسَ مِنْهَا[٢٤].

ولعل تعريف التصوف بالزهد هو الأمر الذي يتبادر إلى ذهن كثير من الناس. فالمتصوف رجل زاهد في الدنيا، راغب عنها، لا يتعلق قلبه بها. ولكن تعريف التصوف بالزهد لا يكفي أيضًا للكشف عن حقيقته. فليس كل زاهد متصوفًا وإن كان كل متصوف زاهدًا [٢٥].

أما أن كل متصوف زاهدًا فهو ضرب من المجازفة العلمية، نظريٍ في رؤيته، مجافي للواقع عند تطبيقه، فصدق من قال: (كان التصوف حُرقةً في القلب، فصار خِرقةً على الجسد، وكان استتارًا عن الناس، فصار اشتهارًا بين الناس)، حتى سار بعضهم يتخذه لقبًا، وأما التكالب على المناصب،

والمنافع المادية الوقتية فهو ظاهر غير خافٍ للعيان، يتساوى فيه الصوفي وغيره سيان، وإن كان من شأنه قديمًا أنه يستوجب المفارقة.

ولهذا فقد فرَّقّ الفيلسوف ابن سينا في كتابه: "الإشارات" بين المفاهيم التي اختلطت في أذهان الناس وقاربوا فيها بين من هو صوفي ومن هو عابد وبين الزاهد، فيقول: (المُعْرِض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم الزاهد، والمواظب على فعل العبادات من القيام و الصيام ونحوهما يخص باسم العابد؛ والمُتَصرِف بفكره إلى قدس الجبروت مستديمًا لشروق نور الحق في سره يخص باسم العارف وقد يتركب بعض هذه مع بعض).

إن الذين يتمسكون بالمفهوم الخاطئ للزهد، ويحبون الفقر والانزواء عن الدنيا، هؤلاء يساعدون ـ من حيث لا يشعرون ـ أعداء الأمة على ترسيخ هذا المفهوم في كتاباتهم عن الإسلام، بل تقديمه لعوام الناس على أنه الحق أو الأصل الذي ينطلق منه الإسلام. والنتيجة أو المحصلة من وراء ذلك أن أمة الإسلام تظل دوما عالة على غيرها، وتركت قيادة الحياة لغيرها، و اكتفت من أرض الحياة بقطعة أرض تسجد فيها سجدة، ومن زينتها بثوب خلق، وسبحة طويلة، ومن قوتها حبة تمر يتبعها شربة ماء.ولو ظل فينا هذا الفهم للزهد والنظر للحياة، فسوف يعز علينا حصول هذه الأشياء، ويبقى باطن الأرض خير لنا من ظاهرها، لكنه عند الله ليس بخير لنا[٢٦].

فالزهد في الإسلام على هذا النحو وغيره عند العلماء الزاهدين الجادين والذين يمثلون الإسلام ويتمثلونه "حالة دينامية" لا تعرف الاستكانة ولا الركون، فالعمل شرط للسعادة لأن المراد به تحصيل الفضائل، وكسر الشهوات، والعلم هو الشرط الثاني لحصول النفس على الكمال وصولاً إلى السعادة الحقيقية وهيَّ التي يراها الإمام أبي حامد الغزالي تتحقق بالسعادة الأخروية التي هيَّ: (بقاء لا فناء له، وسرور لا غم فيه، وعلم لا جهل معه، وغنى لا فقر يخالطه)[٢٧].

الإسلام لايدعو إلى الفقر..

شكّلت الأحاديث التي فضلت الغني الشاكر على الفقير الصابر، مفهومًا قَرَّ في أذهان بعض المسلمين بأفضلية التحلي بالفقر باعتباره الباب الأوسع والأوسط للولوج إلى جنة الرحمن تعالى ومرافقة النبي صلى الله عليه وسلم.

ساهم في موقف العامة مارأوه من خلافٍ قائم بين العلماء؛ فمنهم من ينحاز إلى الفقر بأحاديث تؤيد وجهة نظره، و منهم من ينحازون إلى الغنى ويبرزون أحاديث تؤيد منحاهم.

وقد ناقش ابن بطال[٢٨] رحمه الله أدلة كل فريق بعد عرضها، ثم قال: "وأحسن ما رأيت في هذه المسألة ما قاله أحمد بن نصر الداودى[٢٩] قال: الفقر والغنى محنتان من الله تعالى، وبليتان يبلو بهما أخيار عباده؛ ليبدى صبر الصابرين، وشكر الشاكرين، وطغيان البطرين، وإنما أشكل ذلك على غير الراسخين، فوضع قوم الكتب في تفضيل الغنى على الفقر، ووضع آخرون في تفضيل الفقر، وأغفلوا الوجه الذى يجب الحض عليه والندب إليه"[٣٠].

يذكر الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مفهومه عن الغنى والفقر، فيقول: (الفقر والغنى مطيتان ما أبالي أيهما ركبت، إن كان الفقر فإن فيه الصبر، وإن كان الغنى فإن فيه البذل).

والإسلام ذلك الدين العملي ما جاء ليحض أتباعه على التزام الفقر، بل لا حرج على المسلم في السعي لأن يكون غنيًا، فمن أدعية نبينا صلى الله عليه وسلم المأثورة: ''اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى، وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ، وَالْغِنَى''[٣١].

قال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه اللَّه عن هذا الحديث: (هذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها، وهو يتضمن سؤال خير الدين وخير الدنيا، فإن الهدى هو: العلم النافع، والتقى: العمل الصالح، وترك ما نهى عنه اللَّه ورسوله، وبذلك يصلح الدين، فإن الدين علوم نافعة ومعارف صادقة فهو "الهُدَى" وقيام بطاعة اللَّه ورسوله، فهو"التُقى" والعفاف، والغنى يتضمّن العفاف عن الخلق، وعدم تعليق القلب بهم، والغنى باللَّه وبرزقه، والقناعة بما فيه، وحصول ما يطمئن به القلب من الكفاية، وبذلك تتم سعادة الحياة الدنيا، والراحة القلبية، وهي الحياة الطيبة، فمن رُزِقَ الهُدى، والتقى، والعفاف، والغنى نال السعادتين، وحصل على كل مطلوب، ونجا من كل مرهوب)[٣٢].

ومنها حديثه صلى الله عليه وسلم: ''اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ''[٣٣].

ولله در الزاهد الحق، وسيد العلماء العاملين في زمانه أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، حين قال: (لأن أخلِّف عشرة آلاف درهم أُحاسب عليها، أحبُ إليَّ من أن أحتاج إلى الناس)، لقد وعى الرجل الفارق الحقيقي بين أن يكون زاهدًا عاملاً، أو أن يكون نطعًا عالة يتكفف الناس قوته وقوت عياله، ولم يكتفِ بأن يكون هذا مسلكه في الفهم والتطبيق السليم، بل أشاعه بين من هم أضرابه ومن دونه، عندما كان يتوجه إليهم بالقول: (إذا أردت أن تتعبد فاحْرِزْ الحنطة)، والحنطة هنا ليست كل الطعام ولكنها كنايةً ورمزًا عن القوت الذي يتحصل بالسعي دون الإتكال على الغير.

يفصل في قضية الغني والفقير شيخ الإسلام ابن تيمية حين يرد الأمر لا للغنى ولا للفقر ولكن مناط الزهد كما يقول: (إذا سَلِمَ القلب من الهلع، واليد من العُدوان كان صاحبه محمودًا؛ وإن كان معه مال عظيم، بل قد يكون مع هذا زاهدًا أزهد من فقير هلوع)[٣٤].

وأحال الإمام ابن القيم الأفضلية إلى التقوى، كما قال في عدة الصابرين: (التحقيق أن يقال: أفضلهما أتقاهما لله تعالى، فإن الله سبحانه لم يفضل بالفقر والغنى، كما لم يفضل بالعافية والبلاء، وإنما فضل بالتقوى).
ولقد حاول أحد المسلمين المعاصرين الخروج من مأزق الغنى والفقر فسأل شيخه:
ـ أريد أن أصبح غنيًا ولكن في نفس الوقت أريد أن أحشر مع زمرة الفقراء والمساكين، فكيف أوفق بينهما؟
فأجابه الشيخ الجليل إجابة واعية مستنبطة من فقهه الصحيح لمفهوم تلك القضية في الإسلام، فأجاب:
ـ من أسباب ذلك أنه إذا أتاك الله تعالى مالاً، أن تقوم بأداء حق هذا المال مع التواضع والافتقار إليه سبحانه وتعالى.
والخلاصة من الترجيح بين أفضلية الفقر والغنى، أن أدلة تفضيل الغنى على الفقر كانت أصح وأصرح من أدلة تفضيل الفقر على الغنى، وأن أدلة تفضيل الفقر على الغنى كانت إما ضعيفة وإما صحيحة ولكنها غير صريحة في الدلالة على تلك الدعوى. والذي رجحه المحققون من العلماء: أن الغنيَّ الشاكر أفضل من الفقير الصابر، وإن كان في كلٍ خير، وأن الأنبياء عليهم وعلى نبينا السلام، وجماهير الصحابة رضوان الله عليهم، وغالب السلف كانوا أصحاب أموال وغنى بخلاف ما يعتقده كثير من الناس من أنهم كانوا فقراء معدمين، وعليه فأن الفقر والغنى مثل السقم والعافية، فمن ابتلاه الله تعالى بالسقم فصبر كان كمن ابتلى بالفقر فصبر.
هناك تعارض بين الفقر وبين تحقيق المهمة الأولى التي من أجلها خلق الإنسان وهيَ عبادة الله، فبدون المال تتعطل كثير من حدود الله عز وجل وفرائضه، كالزكاة والحج والجهاد في سبيل الله، كما أن هناك تعارض بين الفقر وبين تحقيق المهمة الثانية التي من أجلها خلق الإنسان وهي مسئولية تعمير الأرض؛ إذ إنه بدون المال والكسب تخرب الدنيا.
وأخيرًا، إن الفقر في ذاته ليس بمذموم إن كان قدرًا من أقدار الله عز وجل، أما أن يرضاه الإنسان لنفسه ويسعى إليه ويضيْع ماله ويرى أن ذلك أفضل له فهذا شيء لا يرضاه عقل ولا دين[٣٥].

إذن فقد بان لنا أن الإسلام بريء تمامًا من كونه داعيًا إلى الفقر بأي حالٍ من الأحوال، وهنا يبرز السؤال الثاني:

ـ هل الفقر مشكلة إسلامية؟

... والإجابة الأكيدة والوحيدة بالنفي قطعًا، وليس هذا من منظور عقيدي وجداني، ولكن هذا بإعتراف الاقتصاديين ومن لهم دالة اهتمام بتتبع مشكلة الفقر من الحقوقيين والساسة، بل باعتراف رئيس البنك الدولي الذي يقول: (لا يزال الفقر مشكلة عالمية ضخمة الأبعاد. فمن بين سكان العالم البالغ عددهم ٦ مليارات نسمة، يعيش ٢,٨ مليار نسمة بأقل من دولارين في اليوم و١,٢ مليار نسمة بأقل من دولار في اليوم. ومن كل ١٠٠ رضيع يموت ستة قبل بلوغ سنة واحدة من العمر، ويموت ثمانية قبل بلوغ الخامسة. ومن بين الأطفال الذين يبلغون سن المدرسة لا يدخل المدرسة الابتدائية ٩ ذكور و١٤ أنثى من كل ١٠٠ طفل، ولئن كانت الإحصاءات لا تعطي صورة كاملة تساعد على فهم مشكلة الفقر، فإن هذه الأرقام المروعة تشير إلى وجود انتهاكات عامة واسعة النطاق للإعلان العالمي لحقوق الإنسان والعهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية والعهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكذلك لاتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، واتفاقية حقوق الطفل، والصكوك الدولية الأخرى لحقوق الإنسان .ولا يقتصر انتشار الفقر على البلدان النامية والمجتمعات التي تمر بمرحلة انتقالية، وإنما هو ظاهرة عالمية تعيشها جميع الدول بدرجات متفاوتة. ففي الكثير من البلدان المتقدمة جماعات محرومة تعيش تحت ولايتها، مثل الأقليات والسكان الأصليين. كما يوجد في الكثير من البلدان الغنية مناطق ريفية وحضرية يعيش فيها السكان في ظل ظروف مروعة - جيوب من الفقر وسط الثراء)[٣٦].

نعم، ليس الإسلام هو الذي أوصل العالم إلى هذا الفقر، بل أن "ميشيل تشوسودوفسكي" وهو يرصد "عولمة الفقر" يتهم البنك والصندوق الدوليين معًا بأنهما من أهم أسباب الفقر والمجاعات في العالم، فيقول: (وإن كانت المتغيرات المناخية "الخارجية" تلعب دورًا في إطلاق المجاعة وزيادة الأثر الاجتماعي للجفاف فإن المجاعات في عصر العولمة من صنع الإنسان، إنها ليست "ندرة الأغذية" بل نتاج هيكل من فائض العرض العالمي يقوض الأمن الغذائي، ويدمر الزراعة الغذائية الوطنية، فهذا الفائض ـ الذي تنظمه وتسيطر عليه بشدة المنشآت الزراعية الدولية ـ يؤدي في نهاية الأمر إلى

ركود كل من إنتاج واستهلاك المواد الغذائية الأساسية، وإفقار المزارعين في العالم كله. وفضلاً عن هذا فإن لبرنامج التكييف الهيكلي لصندوق النقد الدولي ـ البنك الدولي ـ في عصر العولمة ـ علاقة مباشرة بعملية ظهور المجاعة، لأنه يقوض بانتظام كل فئات النشاط الاقتصادي التي لا تخدم مباشرة مصالح النظام السوقي العالمي، حضرية كانت أو ريفية [٣٧].

لقد اتهمت كل الأطراف بعضها البعض، إلا أنها لم تتطرق إلى اتهام الدين الإسلامي بأنه كان سببًا وحيدًا أو من جملة أسباب إفقار العالم الآن أو من قبل، أو هددت أفكاره بتنامي المجاعات والفقر ليس في الدول المتخلفة والنامية فحسب بل والمتقدمة أيضًا، ولكن مع كون الإسلام لم يدعو كدين إلى الفقر، ولم يكن سببًا مباشرًا له، فهل رضيَّ الإسلام به، ولم يحاربه، أو يحاصره، أو حض أتباعه على القنوع بالفقر، والقبول به كحالة واقعية مهيمنة تقضى بالتسليم والإذعان له؟

والإجابة القطعية الوحيدة والأكيدة تنفي ذلك المسلك نفيًا جازمًا، وليس أدل على ذلك الاهتمام الواسع والجلي من تناول آيات القرآن الكريم، وأحاديث السنة المطهرة للفقر والفقراء والحث على رعايتهم والإحسان إليهم، كما يدل على النفي القاطع التعريف الجامع المانع للإقتصاد الإسلامي كما أعلنه مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر سنة١٩٧٢: (نظام متميز عن غيره من المذاهب الإقتصادية، يقوم على أصول ثابتة أوردتها نصوص كلية في الكتاب والسنة النبوية، تكفل الكرامة الإنسانية والعدالة الإجتماعية، وتوجب السعي في الحياة بالعمل الفكري والبدني، وتحمي الكسب الحلال ولا تُحدَ من حرية السعي والكسب إلا بالتزام الشريعة..).

من المدهش أن يعرف العالم الإسلامي ابتداءً من القرن الثاني الهجري تطورًا ملحوظًا في فن العمارة شهدت بهذا انتشار الأبنية وتأسيس المدن، وهذا غير أنه يأتي تطبيقًا عمليًا لاستخلاف الإنسان في الأرض وتعميره لها كما جاء في القرآن الكريم، إلا أن هذا العمران لا يستوجب الفقر بحالٍ من الأحوال؛ فقد أكد الفكر الإسلامي على أن العمارة سبيل المُلك بما تُدِره من الأموال باعتبارها هي المحرك الأساسي للحركة الإقتصادية، ويكشف هذا عن نظرة عميقة الغوْر بعيدة المدى صادرة عن يقين بجدوى العمارة وتكثيرها. وتردد صدى هذا الفكر في سياسة بعض الحكام الذين اهتموا بالعمارة كالخليفة المعتصم الذي قال: (إن العمارة فيها أمور محمودة، أولها عمران

الأرض التي يحيا بها العالم، وعليها يزكو الخراج، وتكثر الأموال وتعيش البهائم، ترخص الأسعار، ويتسع المعاش)[٣٨].

وقال ابن حزم: (يأخذ السلطان الناس بالتجارة وكثرة الغراس، ويقطعهم الاقطاعات في الأرض الموات، ويجعل لكل واحد ملك ما عمَّر، ويعينه على ذلك لترخص الأسعار، ويعيش الناس والحيوان، ويعظم الأمر، ويكثر الأغنياء، وما يجب فيه الزكاة)[٣٩]. وهو ما يطابق نفس ما ذهب إليه ابن خلدون حيث قال: (ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت أحوال الساكن ووسع المصر) [٤١]؛ إذ كان يرى أن الدولة دون العمران لا تتصور، والعمران دونها متعذر، وحينئذ فاختلال أحدهما مستلزم لاختلال الآخر كما أن عدمه مؤثر في عدمه.

ولفهم مقولة ابن حزم "ملك ما عمِّر" أي يقوم على إصلاحها وإحيائها، لا تحجيرها وفقط، والتحجير معناه وضع علامات من الأحجار حولها، ولأن الإسلام دين يدعو إلى العمل، فقد اتفق الفقهاء على أنه يترك لمن أخذ تلك الأرض ثلاث سنوات فإذا لم يقم باحيائها انتزعت منه وأعطيت لغيره. وأصل الثلاث سنوات ليست منذ الفقهاء بل من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ''ليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين''[٤٢] ولقوله هذا صلى الله عليه وسلم علاقة بقوله: ''من سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم فهو أحق به''[٤٣]. وبه خطب عمر من فوق منبره، وبه حكم على بلال بن الحارث المزني. إن الإسلام يقيم علاقة مطّردة بين العمل ونشأة الحقوق الفردية؛ فحيثما وجد العمل وجدت ثماره (التملك) وحيثما غاب العمل تغيب أُسس التملك المشروع؛ لأن الأسباب المنشئة للملك أصلاً: أي تلك التي سوّغت الاختصاص الفردي ابتداء، ومن استقراء الأحكام المختلفة لم نعرف أن الإسلام يقر شيئاً منها إلا العمل الاقتصادي [٤٤].

وإحياء الموات أداة من الأدوات غير المباشرة التي يقدمها الإسلام ضمن حزمة من الحلول التي تتنوع بين الإلزام والاختيار، والمباشرة وغير المباشرة، والمكانية بنوعيها المحلية والمركزية، ويضاف إليها الدولية أيضًا، وإن كنت قد بدأت بإحياء الموات وما فيه من أحكام الأراضي للدلالة على نفي العلاقة بين الإعمار والفقر، ذلك أن العمران جالب لبقية المنافع التي تجلب الغنى وأسباب البقاء.

فمن حيث الإلزام والاختيار: حيث توجد بعض الأدوات يجب على المسلمين الالتزام بأدائها من الأصل مثل الزكاة، وبعضها يلتزم بها إن وجد موجبها مثل النذور، والكفارات، والوقف، ونفقة الأقارب، وبعضها اختياريًا مثل الصدقات التطوعية بجميع أنواعها، ومن شأن ذلك أن الإسلام يضمن حدًا ثابتا متجددًا من الموارد المالية لرعاية الفقراء عن طريق الأدوات الإلزامية، ثم يزيد عليه بفتح الباب أمام المسلمين لزيادة هذا المورد بما يتقربون به اختيارًا إلى الله سبحانه وتعالى.

وأما من حيث المباشرة وغير المباشرة: ونعنى بهذه الخاصية أن بعض الأدوات الإسلامية تمثل علاقة مباشرة بين الغنى والفقير يعطيها له دون وسيط مثل الصدقات التطوعية والزكاة إن كان المسلم يخرجها بنفسه وكذا الكفارات مما يوجد روح المودة ويزيد من الترابط والألفة بينهم. وبعضها يتم بطريق غير مباشر مثل الوقف الخيرى على مر الزمان، وكذا مصرف الإنفاق في سبيل الله الذى يشمل كثيرًا من المصالح العامة في المجتمع.

وأما من حيث المحلية والمركزية: حيث توجد بعض الموارد تنفق فى المنطقة أو البلد كشرط أساسى مثل الزكاة، ولطبيعتها مثل نفقة الأقارب وحق الجيران، وبعضها يمكن أن يتم على مستوى الدولة مثل الإسهام فى المشروعات العامة الخيرية، مما يجعل نطاق عمل هذه الأدوات متسعاً يغطى كل أقاليم الدولة[٤٥].

أما من حيث الدولية، فيكون بالتكافل في أوقات الأزمات والنكبات التي تحيق بإحدى الدول فتنجدها وتعينها وتغيثها باقي الدول، وبالتكامل الإقتصادي في كافة الأوقات.

فإذا كان هذا فهم العلماء والحكام لمفهوم الدولة وإقامة الملك فيها، والذي لن يقوم إلا بالعمران، وذلك العمران يحتاج إلى التمويل، وهو في ذاته جالبًا للأموال، والغاية منه رفاهية البشر، وتكثير الأغنياء لأنهم الممولون الذين سيضخون زكاتهم في بيت المال، والتي ستنفقها الدولة على المصارف التي حددها الله عز وجل في كتابه الحكيم، فمن أين أتى هذا المفهوم الخاطيء عن الإسلام دينٌ يحبذ الفقر، أو يدعو أتباعه لانتهاج سبيله؟!

إذن، فالإسلام الذي جاء ينشر هذا الدين في أرجاء المعمورة، وحارب من أجل تثبيت أركان دولته، ومن ثم تصدير حضارته التي قامت وتسيدت حينًا من الدهر، ما جاء ليدعو إلى الفقر، بل إلى الغنى، ورفاهية الإنسان التي تعينه على عبادة الله الواحد، وذكر المُنعم الذي أنعم لا التلهي عنه انشغالاً

بنعمه، تلك الرفاهية التي ترقق القلب لتعين ذوي النوْب والحاجات، لا تلك النى تؤدي إلى البطر والطغيان، ونسيان ذكر الله تعالى.

هوامش الباب الأول:

[١]مدارج السالكين جـ٢ ص (١٣).

[٢] إبراهيم الجبالي: من الأدب النبوي ص ٥١/٥٠ جـ٢.

[٣] سورة الأعراف:(٣١ـ٣٢).

[٤] تفسير السعدي: ص٢٧٩،٢٧٨.

[٥] جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط ١٨١/٢.

[٦] أخرجه الترمذي (٣٤١٩) من حديث ابن عباس.

[٧] الدكتور السيد عطية عبد الواحد: مقدمة في علم الإقتصاد ص٢٩٧.

[٨] الجويني: غياث الأمم في التياث الظلم،ص١٨١.

[٩] (إسناده حسن): الهيثمي في "مجمع الزوائد": ٢٢٢/١٠، وقال رواه الطبراني في الكبير. وهناك من العلماء من يرى أن الصواب في الحديث أنه موقوف على أبي الدرداء رضي الله عنه، ولا يصح مرفوعًا.

[١٠] الإمام ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، ص٣٣٥.

[١١]الدكتور صبحي الصالح: علوم الحديث ومصطلحه، ص ٢٦٩ـ ٢٧٠.

[١٢] العلامة ابن الجوزي: صيد الخاطر.

[١٣] مجموع الفتاوى: (١٣٨/٢٢).

[١٤] مختصر الفتاوى المصرية (٥٠/٢).

[١٥] رواه أبو داود (٤٠٦٣) وأحمد (١٧٢٣١) – واللفظ له - ، وصححه الأرناؤط والألباني.

[١٦] تفسير القرطبي (١٩٧/٧).

[١٧] الحافظ ابن حجر "فتح الباري" (٢٦٠/١٠،٢٥٩).
[١٨] رواه النسائي (٢٥٥٩) وابن ماجه (٣٦٠٥) ، وحسَّنه الألباني في "صحيح النسائي".

[١٩] رواه ابن ماجه (١٠٩٥) وصححه البوصيري، والألباني في "صحيح ابن ماجه".

[٢٠] مجموع الفتاوي، المجلد العشرون.

[٢١] الدكتور إبراهيم مدكور: في الفكر الإسلامي ص١٦٥.

[٢٢] سورة محمد: (٣٧).

[٢٣] ابن رجب الحنبلي:جامع العلوم والحكم ص٣٣٢.

[٢٤] ابن رجب الحنبلي:جامع العلوم والحكم ص٣٣٢.

[٢٥] دكتور محمود حمدي زقزوق: مقدمة في الفلسفة الإسلامية ص١٧٠.

[٢٦]الدكتور عبد التواب مصطفى خالد: الزهد في المفهوم الإسلامي.

[٢٧] الغزالي: ميزان العمل ص٨٢.

[٢٨] العلامة أبو الحسن؛ علي بن خلف بن بطال البكري، عني بالحديث العناية التامة؛ شرح صحيح البخاري.

[٢٩]هو أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي الأسدي، من أئمة المالكية بالمغرب، وأول الشارحين لصحيح البخاري.

[٣٠]فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر(١٦٨/١٠).

[٣١]مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٢١)، الترمذي الدعوات(٣٤٨٩).

[٣٢]بهجة قلوب الأبرار، ص ٢٤٩.

[٣٣] رواه البخاري في الأدب المفرد وحسنه الألباني.

[٣٤]الآداب الشرعية جـ٢/٢٤٢،٢٤١.

[٣٥]مصطفى أحمد علي نوارج: الفقر وموقف الشريعة الإسلامية منه، ص٣٠.

[٣٦]مكتبة حقوق الإنسان، جامعة منيسوتا، اللجنة المعنية بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية،الدورة الخامسة والعشرين٢٠٠١: الفقر والعهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، بيان اللجنة المعنية بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية أمام مؤتمر الأمم المتحدة الثالث المعني بأقل البلدان نموا.

[٣٧]ميشيل تشوسودوفسكي: "عولمة الفقر" ص١٠٥.

[٣٨] انظر: الدكتور محمد عبد الستار عثمان:المدينة الإسلامية، عالم المعرفة ع ١٢٨،ص٢٦.

[٣٩] المسعودي: مروج الذهب، ج٤، ٣٤٤، بيروت١٩٦٥.

[٤٠] ابن خلدون: المقدمة ج٣، ص١٠٠٩، القاهرة ١٩٦٧.

[٤١] ابن خلدون: المقدمة ج٣، ص٨١٣، القاهرة ١٩٦٧.

[٤٢] ورد في كتاب إحياء الموات، نصب الراية،ج ٤، ص ، وفي الخراج لأبي يوسف:٦٥,٢٩٠.

[٤٣] أخرجه أبو داود في سننه، حديث رقم (٣٠٧١).

[٤٤] أنظر: موقع الدكتور عبد الجبار حمد عبيد السبهاني: الإقتصاد الإسلامي: عدالة التوزيع.

[٤٥]دكتور محمد عبد الحليم عمر: موقف الإسلام من الفقر والفقراء بالمقارنة مع النظم المعاصرة السائدة.

الباب الثاني

الرسول صلى الله عليه وسلم بين الزهد والفقر

هل كان الرسول صلى الله عليه وسلم فقيرًا؟

تفنيد مظاهر فقر الرسول صلى الله عليه وسلم

سمو الفقرعند النبي صلى الله عليه وسلم

هل كان الرسول صلى الله عليه وسلم فقيرًا؟

الزهد أن يزهد الزاهد عن قدرة لا عن فاقة؛ فالزاهد الذي يملك ثم يزهد له القدرة على إتيان الفعل المباح ثم التولي عنه مختارًا طائعًا لامضطرًا ولا مجبرًا. فهل كان الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وفق هذا المعنى والمفهوم ـ في عداد الزاهدين؟.. الشائع أنه كان فقيرًا، فمتى كان مالكًا؟، وكيف كان قادرًا مادام لا يملك؟!

من أسفٍ أن بعض ممن يعرضون السيرة الشريفة للرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك بعض الذين يفهمون من سيرته صلى الله عليه وسلم لم يحسنوا العرض ولا الفهم ـ ربما عن غير قصد ـ فقد خلطوا بين الفقر والزهد فاختلط الأمر على أذهان كثير من المسلمين.

ومثلما لم يدعو الإسلام إلى الفقر كذلك لم يدعُ الرسول صلى الله عليه وسلم أتباعه إلى تنكب طريق الغنى، والتزام الفقر طريقًا، يقول الشيخ محمَّد الغزالي: (إن أعدادًا كبيرة من المسلمين قد زعموا أنَّ صاحب الرسالة قد آثر

الفقر على الغنى، ودعا إلى قِلّة ذات اليد، وبهذه الفلسفة الجبانة نشروا الفقر في الأمَّة الإسلاميَّة من عدة قرون، وجعلوها لا تُحسِن إدارة مفتاح في خزائن الأرض! فلننظر: هل جاء في سُنة صاحب الرسالة تحقير للغنى وتأخير لأصحابه وذمٌ لأنشطتهم؟ في السنة الصحيحة لايوجد شيء من ذلك)![١].

وكثيرًا ما يقع القاري والسامع في أمور كثيرة، فالنبي صلى الله عليه وسلم فقير ثم هو يستعيذ من الفقر الذي كاد أن يكون كفرًا، والرسول صلى الله عليه وسلم يدعو أن يكون مسكينًا بما يُرادف الفقر، مع أن الفقر والمسكنة من أول أسباب استحقاق الزكاة التي حُرِّمت عليه وعلى أهل بيته، وهو يقرر أن اليد العليا خير من اليد السفلى، وثبت أنه كان أجود من الريح المرسلة، وأن الآيات الكريمة وصفت الأنبياء والرسل بالاصطفاء والكفاية وعدم السؤال أو أخذ الأجر على القيام بالدعوة، كما يتكرر طلب الابتعاد عن زينة الحياة الدنيا، مع وجود الآيات الكثيرة التي تأمر بالأخذ بها، وأن الله تعالى سخَّرها لعباده جميعًا في الدنيا، وجعلها خالصة للمؤمنين في الآخرة .[٢]

لانشك أن الرسول صلى الله عليه وسلم بدأ حياته يتيمًا فقيرًا إلا أن الله تعالى تفضل عليه وأغناه قال تعالى: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآَوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾.

وعندما استفتى أحد المسلمين شيخه بجواز القول بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان فقيراً، فأجابه الشيخ بإنه: (لا يجوز هذا القول إن قصد به التنقيص من النبي صلى الله عليه وسلم ويؤدب قائله، فقد جاء في التاج والإكليل للمواق: قال مالك في رجل عيره رجل بالفقر: فقال أتعيرني بالفقر وقد رعى النبي صلى الله عليه وسلم الغنم، فقال مالك: عرض بذكر النبي صلى الله عليه وسلم في غير موضعه أرى أن يؤدب.ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن فقيراً من ناحية الواقع فقد امتن الله عليه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾الضحى: (٨). وقد ترك بعد موته بساتين وأموالاً بالمدينة وفدك، وقد كان من أدعيته صلى الله عليه وسلم المأثورة: ''اللهم إني أسألك

الهدى والتقى والعفاف والغنى''. (رواه مسلم وغيره). ومنها قوله صلى الله عليه وسلم في دعائه: ''اقض عنا الدين وأغننا من الفقر''. (رواه مسلم).

وفي سنن النسائي عن مسلم بن أبي بكرة: قال: كان أبي يقول في دبر الصلاة: اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر، فكنت أقولهن، فقال أبي: أي بني عمن أخذت هذا؟ قلت: عنك، قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقولهن في دبر الصلاة. (قال الشيخ الألباني: صحيح الإسناد). ولا يعارض هذا الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه في سننه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: ''اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ'' [٣]. فالمسكنة في دعائه صلى الله عليه وسلم إنما تعني: الذلة والافتقار إلى الله، إرشادًا لأمته إلى استشعار التواضع والاحتراز عن الكبر والنخوة..

وفي معناه يقول المباركفوري في شرح الترمذي: فأراد صلى الله عليه وسلم بذلك إظهار تواضعه وافتقاره إلى ربه إرشادًا لأمته إلى استشعار التواضع والاحتراز عن الكبر والنخوة، وأراد بذلك التنبيه على علو درجات المساكين وقربهم من الله تعالى.. قال الطيبي: لكن لم يسأل مسكنة ترجع للقلة، بل للإخبات والتواضع والخشوع. وفي النهاية في غريب الأثر: ''اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين'' ـ أراد به التواضع والإخبات وأن لا يكون من الجبارين المتكبرين.

وفي تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة: ومعنى المسكنة في قوله: ''احشرني مسكينًا'' ـ التواضع والإخبات كأنه سأل الله تعالى أن لا يجعله من الجبارين والمتكبرين ولا يحشره في زمرتهم، والمسكنة حرف مأخوذ من السكون يقال تمسكن الرجل إذا لان وتواضع وخشع وخضع.

ومن الدليل على ما أقول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان سأل الله عز وجل المسكنة التي هي الفقر لكان الله تعالى قد منعه ما سأله، لأنه قبضه غنيًا موسرًا بما أفاء الله عز وجل عليه وإن كان لم يضع درهمًا على درهم، ولا يقال لمن ترك مثل بساتينه بالمدينة وأمواله ومثل فدك إنه مات فقيرًا والله عز وجل يقول: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآَوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى

(٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨)﴾ والعائل الفقير كان له عيال، أو لم يكن، والمعيل ذو العيال كان له مال أو لم يكن، فحال النبي صلى الله عليه وسلم عند مبعثه وحاله عند مماته يدلان على ما قال الله عز وجل، لأنه بُعِث فقيرًا وقُبِض غنيًا، ويدل على أن المسكنة التي كان يسألها ربه عز وجل ليست بالفقر[٤].

وهكذا فقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث فقيرًا ولكنه عاش وقبض غنيًا، فهل كان مالكًا؟.. والإجابة بداهةً: نعم؛ إذ التملك من أدل الأمارات على الغنى، فكيف يكون غنيًا وهو لا يملك؟!

وقد ثبت أنه كان لرسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم مصادر من الثروة الحلال كالتجارة والرعي، وله خُمس الغنائم، والغنيمة هيَّ ما أصابه المسلمون في حروبهم والتاريخ يشهد أن هذه الفترة كانت كثيرة الحروب وفيرة الغنائم، قال تعالى: ﴿واعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ولِلرَّسُولِ ولِذِي القُرْبَى والْيَتَامَى والْمَسَاكِينِ وابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ ومَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الفُرْقَانِ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ واللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٥].

وقد كان صلى الله عليه وسلم يعطى المجاهدين نصيبهم الأربعة أخماس، أما نصيبه صلى الله عليه وسلم وهو الخُمْس فقد كان يختص به نفسه وأقاربه واليتامى والمساكين وابن السبيل.

كما أن له صلى الله عليه وسلم في الفيء الغنيمة كلها يوزعها كما فصل القرآن ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)﴾ [٦].

والفيء، هو ماغنمه المسلمون من المشركين بغير حرب: كالجزية أو ماخَلفُوه ورائهم خوفًا من الحرب، أو ما صالحوا عليه المسلمين.. وقد كان من هذا الفيء أرض بخيبر وعقارات ومزارع فدك التي طالبت بها فاطمة

رضي الله عنها خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضي الله عنه.هذا غير الهدايا التي كان يرسلها الملوك[٧].

كما اشتهر وقوع الكسوة والدواب في هدايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أم ولده مارية كانت من الهدايا:

أما الكسوة ففي الصحيحين عن أنس: أن أكيدر دومة أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة سندس. رواه أحمد والنسائي والترمذي أتم من سياقه، ولأبي داود: أن ملك الروم أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم مشيقة سندس فلبسها، وعن أنس أن ملك ذي يزن أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حلة أخذها بثلاثة وثلاثين بعيرا فقبلها

عن علي أن أكيدر دومة أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثوب حرير فأعطاه عليا فقال شققه خمُرًا بين الفواطم [٨]. والخمار هو الثوب من الحرير، وأما الفواطم فعلى قول الجمهور، إنهنَّ ثلاث: فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفاطمة بنت أسد (أم علي بن أبي طالب)، وفاطمة بنت حمزة بن عبد المطلب.

وأما الدواب: فروى البخاري عن أبي حميد الساعدي قال: غزونا مع النبي صلى الله عليه وسلم تبوك، وأهدى بن العلماء للنبي صلى الله عليه وسلم بردا وكتب له ببحرهم. وجاء رسول صاحب أيلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب وأهدى إليه بغلة بيضاء[٩].

وَفِي كِتَابِ الْهَدَايَا لِإِبْرَاهِيمَ الْحَرْبِيِّ: "أَهْدَى يُوحَنَّا بْنُ رُؤْبَةَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ.". وَفِي مُسْلِمٍ: "أَهْدَى فَرْوَةُ الْجُذَامِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بَغْلَةً بَيْضَاءَ رَكِبَهَا يَوْمَ حُنَيْنٌ." وَعَنْ بُرَيْدَةَ عِنْدَ إِبْرَاهِيمَ الْحَرْبِيِّ وَابْنِ خُزَيْمَةَ وَابْنِ أَبِي عَاصِمٍ: "أَنَّ أَمِيرَ الْقِبْطِ أَهْدَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم جَارِيَتَيْنِ وَبَغْلَةً، فَكَانَ يَرْكَبُ الْبَغْلَةَ بِالْمَدِينَةِ، وَأَخَذَ إِحْدَى الْجَارِيَتَيْنِ لِنَفْسِهِ فَوَلَدَتْ لَهُ إِبْرَاهِيمَ وَوَهَبَ الْأُخْرَى لِحَسَّانَ."

كما كان للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ في حياته من السِّلاح، والأثاثِ، والخيلِ، والدَّوابِّ، والكِسْوةِ،والمنائح واللِّقاح، وغير ذلك من الأشياء التي لابُدَّ له منها، وكان له أرضٌ بِفَدَك وخَيبَر، وقد ذَكَرَ ابنُ القَيِّمِ سلاحَهُ وأثاثَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ[١٠].

وغنم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ يوم بدر جملاً مهريًا لأبي جهل في أنفه بُرةٌ من فضة، فأهداه ـ أي ذبحه هديًا ـ يوم الحديبية ليغيظ به المشركين. وكانت له مائة شاة وكان لا يريد أن تزيد، كلما ولَّد له الراعي بهمة ذبح مكانها شاة، وكانت له سبع أعنز منائح ترعاهن أم أيمن.

ولما فتح خيبر وقسم أرضها، وكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، فكان لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ والمسلمين النصف من ذلك، وهو ألف وثمانمائة سهم لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ سهم كسهم أحد المسلمين، وعزل النصف الآخر، وهو ألف وثمانمائة سهم لنوائبه وما ينزل به من أمور المسلمين.وأما فدك فقد كانت لرسول الله ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ ـ خالصة؛ لأنه لم يُوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب. وقال حماد بن إسحاق بن إسماعيل بعد ذكر تركته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ: "ووقفت هذه الأشياء التي ذكرناها من الأموال التي أفاءها الله عليه، والكسوة والخيل والبغلة والحربة، وما ذكرنا مع ذلك بعد وفاته على أن ذلك كله صدقة بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ: ''ما تركنا فهو صدقة''.

وعن عمرو بن الحارث رَضِيَ اللهُ عنهُ قال:(ما ترك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ دينارًا ولا درهمًا ولا عبدًا ولا أمة، إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه وأرضًا جعلها لابن السبيل صدقة)[١١].

وقد عدد أحد الباحثين[١٢] المعنيين بنفي الفقر عن الرسول صلى الله عليه وسلم نحو عشرة مصادر لأمواله صلى الله عليه وسلم، وهي:

- تكسبه صلى الله عليه وسلم من مزاولة التجارة.
- ميراثه صلى الله عليه وسلم من والديه.
- ميراثه صلى الله عليه وسلم من زوجته خديجة بنت خويلد.
- الفيء (أموال بني النضير، وحصون خيبر وفدك وغيرها).
- الصفي (صفيه قبل الغنائم، ومنه بعض نسائه).
- الهدايا (من الصحابة والملوك وغيرهم).
- سهمه صلى الله عليه وسلم مجاهدًا.
- خصائصه في الرزق صلى الله عليه وسلم.

ـ الأنفال ومنها الغنائم.

ـ مصادر من دخله لم يستخدمها رسول الله صلى الله عليه وسلم: جبال الذهب التي عرضها عليه الملائكة، نصيب العاملين على الزكاة، عرضت عليه مفاتيح خزائن الدنيا والخلود فيها، عرض قريش عليه أول الدعوة إلى الإسلام، لو شاء عليه الصلاة والسلام لجعل دعوته لدنياه فكان له ما يقارب ملك سليمان عليه السلام، رفضه أخذ الخمس من مال غدر، داره صلى الله عليه وسلم من ملك تُبَع.

تفنيد مظاهر
فقر الرسول صلى الله عليه وسلم

من المؤكد أن الذين حكموا على فقر النبي صلى الله عليه وسلم كان لهم ما يؤيدهم من مظاهر تمثلت في أقوال وأفعال، منها: إعراض المرضعات عنه لفقره صلى الله عليه وسلم، وزواجه صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة رضي الله عنها لفقره صلى الله عليه وسلم وغناها، والثالثة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع حجرًا على بطنه حال جوعه.

ــ إعراض المرضعات عنه صلى الله عليه وسلم:

ربما دفع بعض العلماء إلى القول بفقر الرسول صلى الله عليه وسلم ما حكته كتب السيرة من رفض المرضعات من قبيلة بنى سعد إرضاعه كلما عُرِّضَ عليهن لفقره صلى الله عليه وسلم، وأنهن كن يطمعن في أبناء الأغنياء، وأن حليمة ما عادت إليه إلا مضطرة لأنها لم تجد طفلاً غيره.

وبقراءة متأنية لتاريخية الحوادث والأحوال حول الرضيع تثبت أنه لم يكن فقيرًا؛ إذ كان في كفالة جده عبد المطلب سيد مكة وكبيرها، ومثله من يُطمع في عطائه، وقد ذكرت المصادر أن جيش أبرهة الحبشي في حملته على الكعبة قد حاز مائتين من الإبل لعبد المطلب، كما أنه فدى ابنه عبد الله بمائة من الإبل، وذبح مجموعة كبيرة منها في زواجه من آمنة لا يصد عنها إنسان ولا حيوان، ويذكر اليعقوبى أن عبد المطلب عند موته لُف في حُلتين من حلل اليمن قيمتها ألف مثقال من الذهب.

أفمن كان ذلك حال جده من اليسار والسَعَة، أيعقل أن يكون فقيرًا تزهد المرضعات في إرضاعه؟.. والمشهور أن من عادة أشراف مكة أن يودعوا أطفالهم عند مرضعات في البادية لينشأوا ويتربوا في تلك البيئة النقية فتقيهم من حر مكة الذي يصيبهم بالأمراض ويودي بهم مبكرًا، وللحفاظ على فصاحة لغتهم وكانت آنذاك قوية لم يخالطها ما خالطها من ورود الأعاجم للعمل والتجارة والخدمة بمكة، وأما الرضيع الفقير من أبناء مكة، فكانت تكفيه أمه بإرضاعه بنفسها.

ولقد ذكرت السيدة حليمة ما نستطيع أن نقول أنه كان السبب المباشر لإعراض المرضعات عنه صلى الله عليه وسلم من ذلك الحديث الذي دار بينها وبينهن، وهو كونه يتيمًا صلى الله عليه وسلم لا فقيرًا؛ فقد وقر في أذهانهن بسابق خبرتهن أن جزيل العطايا يأتي من والد الرضيع لا من جده.

وشتان بين الفقر والفاقة والعوز، والثراء العريض والعيش الهني الرغيد، وكم رأينا عائلاتٍ ممن أخنى عليهم الدهر بكلكله أو ما يطلق عليهم الفرع الفقير من العائلة، أي أنه أقل غنيٍ ويسار من أبناء عائلته وليس فقيرًا بالمفهوم الشائع من الاحتياج.

ولعل الكلمة التي ألقاها أبو طالب في حفل تزويج الرسول صلى الله عليه وسلم من خديجة رضي الله عنها لتدل على هذا أعمق دلالة، فقال: (الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء معد [معدنه] وعنصر مضر [أصله] وجعلنا حضنة بيته وسوَّاس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجًا وحرمًا آمنًا وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به شرفًا ونبلاً وفضلاً وعقلاً، فإن كان في المال قل فإن المال ظل زائل وأمر حائل، ومحمد من قد عرفتم قرابته وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله كذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم). فقد وصفه عمه بأنه قليل المال وليس معدومًا، وشتان ما بين الوصفين.

ــ زواجه من خديجة رضي الله عنها:

الشاهد من تأخر الرسول صلى الله عليه وسلم عن الاقتران بزوجة، هو إحساسه بأن ما يملكه يكفيه ومن يقوم على خدمته، أما الزواج فسيخرجه من منطقة الكفاية إلى منطقة الكفاف، والرجل كان حسّابًا، مارس التجارة

ويعرف أين يكمن الربح ومن أين تأتي الخسارة، فبواقعية شديدة آثر السلامة في الإعراض عن الزواج، مع كونه صلى الله عليه وسلم جميل الخِلقة، قويم الأخلاق، معروف بين قومه، محمود السيرة، رفيع النسب، وكلها مقومات تؤهله لخطبة من يريد، غير أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يهتم بشئون البدن من شهوة الغريزة في طعام أو نساء؛ فلم يؤثر عنه صلى الله عليه وسلم أنه حكى عن امرأة كَلِفَ بها قبل زواجه من السيدة خديجة رضي الله عنها.

وإذا كانت تلك أسبابه التي منعته صلى الله عليه وسلم من الزواج من أي امرأة من قريش فهل يُعقل أن تكون السيدة خديجة هيَّ حلمه في الزواج؟!

كل الوقائع التاريخية تؤكد أنه لم يكن يفكر فى الزواج من خديجة بالرغم من أنها أوسط نساء قريش نسبًا، وأعظمهن شرفًا، وأكثرهن مالاً، ولكنه كان يعلم صلى الله عليه وسلم أن أشراف مكة يتمنون الاقتران بها.

ويستطيع أن يتيقن أو يستشف ما سقناه من خلال هذا الحوار الذي دار بين رسول خديجة والرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك بعدما أيقنت خديجة رضي الله عنها أن هذا الشاب العفيف النفس لن يتحرك نحو دارها قيد أنملة ليطلبها للزواج، وليس هناك أصدق من نَفِيسَة بنت مُنْيَة رسول خديجة وصديقتها التي تروي لنا قصة زواج النبي صلّى الله عليه وسلَّم من السيدة خديجة رضي الله عنها؛ إذ كانت وحدها الشاهد عليه، قالت نَفِيسَة: (كانت خديجة بنت خُوَيْلِد امرأة حازمة، جَلْدَة، شريفة، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذ أوسط قريش نسبًا، وأعظمهم شرفًا، وأكثرهم مالاً، وكل قومها كان حريصًا على نكاحها لو قَدِر على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال، فأرسلتني دَسيسًا إلى محمّد صلّى الله عليه وسلَّم بعد أن رجع في عيرها من الشام:

فقلت: محمّد! ما يمنعك أن تزوَّج؟

فقال: ''مَا بِيَدي ما أَتزوَّجُ بِهِ''.

قلت: فإن كُفِيتَ ذلك ودُعيتَ إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تُجيب؟

قال: ''فَمَن هي؟''

قلت: خديجة.

قال: ''وَكَيفَ لي بِذَلك؟''

قلت: عليَّ.
قال: ''فأنا أَفْعلُ''
قالت نفيسة : فذهبتُ فأخبرت خديجة، فأرسلت إليه: أنِ ائتِ لساعة كذا وكذا، وأرسلت إلى عمَّها عمرو بن أسد لِيزوّجِها فحضر ـ لأن أباها كان قد مات قبل حرب الفِجار).
إن العلاقة الفريدة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وزوجه السيدة خديجة رضي الله عنها لم تسلم من طعن الملحدين من أبناء جلدتنا، وممن هم من غير ملتنا من شركاء الوطن، ومن المستشرقين، ولكن الصنف الأخير بالرغم من كونه مفارق لملتنا وجلدتنا ووطننا كان إلى حدٍ ما الأنصف والأرف والأكثر إنسانية وعقلانية والأقل حقدًا في الطعن والغمز واللمز، وللإنصاف غير واحد من علماء المسيحية من الشرق.
إن أمارات زهد النبي صلى الله عليه وسلم بدأت من بيت الزوجة الثرية خديجة، ولقد عالجت هذا الموضوع وتعرضتُ له في أكثر من كتابٍ لي وبزوايا مختلفة، ولقد نفيت فيه أي نفعية من الزوج الشاب عند اقترانه بسيدة تكبره، بل أن خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى غار حراء والتحنث فيه الليالي ذوات العدد كان صدمة لمن يرصد سيرته صلى الله عليه وسلم؛ فقد سار عكس اتجاه من يفكر بطريقة عادية تراتبية ترى أنها فرصة لرجل مكدود الحال من أخذ استراحة طويلة مما عاناه:
فلو أن رجلاً تزوج خديجة ـ الجميلة الغنية ـ لأقبل علي الدنيا ولكان همه أن ينمي ثروتها ليربو حظه من الراحة المادية، ولغشيَّ مجالس مكة حيث تدور الكؤوس المُترعة الباعثة للنشوة في الرؤوس، وحيث تسمع أحلي الأحاديث وأجمل الدعابات، وأطلي الأقاصيص[١٣]، ولم يكن من أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد زواجها ـ أي من السيدة خديجة ـ ما يدل علي إسرافه في مالها كما يفعل النفعيون الذين يتزوجون العجائز الثريات فلم يعمد إلي البذخ في مظهره، بل كان متواضعًا عفيفًا، ولم يعمد إلي القصف مع أبناء المياسير إظهاراً لثرائه الطارئ. بل ازداد تباعده عن كل ألوان القصف، وزاد زهده في الرخاء والترف وصار يقضي الكثير من وقته صائمًا معتزلاً للناس وحده في الجبل[١٤]،فقد اتفقت الأخبار على أن محمدًا كان في الدرجة العليا من شرف النفس، وكان يلقب بالأمين، أي بالرجل الثقة المعتمد عليه إلى أقصى درجة، إذ كان المثل الأعلى في الاستقامة [١٥].
ولا يتبقى من مناقشة تلك العلاقة الفريدة التي جمعت بين الزوجين محمد

صلى الله عليه وسلم، وخديجة رضي الله عنها من العلاقة المالية وادعاء القوم أن الله تعالى أوكل لخديجة مهمة الإنفاق عليه، وأنه انقطع تمامًا للتأمل، وتركها هيَّ لمتابعة أمر التجارة.
ينفي الدكتور عبد الحليم عويس هذا الزعم فيقول: (وبما أننا نميل إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان له نوع إشراف على تجارة خديجة بعد زواجه منها، وأنه لابد أن يكون له حضوره إشرافا وتوجيها ومراقبة)[١٦].

ولقد بين ابن تيمية المقصود من قول الرسول صلى الله عليه وسلم في خديجة رضي الله عنها: ''ما أبدلني الله خيرًا منها'' بأنها نفعته في أول الإسلام نفعًا لم يقم غيرها فيه مقامها، فكانت خيرًا له من هذا الوجه، لكونها نفعته وقت الحاجة.
وهو ما يراه الدكتور عبد الفتاح محمد السمان من أن مواساتها رضي الله عنها للرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن دائمة وإنما كانت وقت الحاجة، من مثل حصار كفار قريش له صلى الله عليه وسلم ومنعه من القيام بالتجارة والتكسب، وهو ما تدل عليه كلمة "مواساة"، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم تاجرًا قبل خديجة ومع خديجة وبعد خديجة، وذلك من خلال اختيارها له لمهارته في التجارة وإعطائه ضعف ما تعطي لما أكسبها من ربحٍ وفيرٍ كعادته.

رصد الإمام محمد أبو زهرة تلك العلاقة الفريدة بين الزوج محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وبين السيدة خديجة رضي الله عنها، فأوضحها وجلاها بعباراتٍ تزيل اللبس، وترد على الطاعنين، وتبين عمقها على المستويين المادي والإنساني، فيقول[١٧]: (وُلِدَ محمد يتيمًا، وعاش يتيمًا، ثم آتاه الله اليسر العامل، وكفاه العيش الكادح، رعى الغنم ودَبَّر التجارة، ثم بسط الله له تعالى الرزق، وأتاه الزوج الوفية الرضية، فأكمل الله بها انسانيته، وأكمل لها أمومتها، وتوافقا في قطع فيافي هذا الوجود، وكمَّل كل منهما ماينقصه بما عند الآخر، هيَّ امرأة شريفة، ذات ثراء، وهو رجل مكتمل عامل قوى أمين، فأغناها بأمانته وكفلها برجولته، ووجه مالها إلى الخير بحسن نيته وطيب طويته، وقد كان يعمل لها فى المال بأجرٍ مضاعف، تطيب به نفسها، ويكسب مالُها على يديه أضعاف ما ينتج غيره، وكان عبدًا شكورًا، ولو استمر فى هذه الطريق يعمل في مالها ومال غيرها، لأدَرَّ الله عليه أخلا

ف الرزق، ولو كان يبتغي المال وأعراض هذه الدنيا، لنال الشباب والمال معًا، ولكنه صلى الله عليه وسلم رأى أن يعمل في مالها بغير أجر، وأن يضا عفه بغير ثمن، وأن تكون أم ولده، لطيب عرفها وشرف نفسها، وقد تخير لنطفته فاختار أكمل امرأة في قريش أعلاها فى المكرمات كعبًا، وقد اختارها ا لله تعالى له لتكون له ردءًا في شدائده، تواسيه بالكلمة والعطف والحنان، في وقت قد اشتد فيه البلاء، وعَظُم الابتلاء).

ـ وضع حجر على بطنه الشريفة صلى الله عليه وسلم:

واستدل على فقره من استدل من أنه كان صلى الله عليه وسلم يضطر إلى الجوع إلى درجة أن يربط حجرًا وحجرين على بطنه كما جاء فى الإحياء [١٨] وبالرغم أن هذه الحالة كانت طارئة لا يقاس عليها حتى أن زمرة من العلماء أنكروا هذا الحديث وقالوا إنها حالة باطلة وسندهم فى هذا حديث الوصال ــ أى وصل الرسول صلى الله عليه وسلم الصيام ــ وإطعام الله عز وجل له، وأن للرسول صلى الله عليه من الصحابة الذين اشتهروا بالغنى ما كانوا ليتركوه على هذه الحالة.

يفند الدكتور أحمد محمد الحوفي أقوال العلماء، فيقول[١٩] : (أن من أقام بالحجاز عرف عادة أهله إذا أصابتهم المجاعة، فإنه إذا خوى البطن لم يمكن انتصاب القامة، فيعمدون إلى صفائح رقاق في طول الكف، و يربطونها على البطن، فتعتدل القامة بعض الإعتدال. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل مثلهم، ليعلموا أنه لا يملك ما يستأثر به عليهم، وإن لم يحصل له ألم الجوع. على أنه فعل ذلك إيثارًا للثواب، لا لفقدان ما يدفع به الجوع عن نفسه.

وأمَّا الأحاديث التى رويت في شد الحجر على البطن فإنها صحيحة لاجتماع شروط الصحة فيها. ولابن جرير الطبري رد آخر هو أن النبي والصحابة كانوا يفعلون ذلك في حالة دون حالة، لا لعوز وضيق، بل تارة للإيثار، لأن رسول الله كان يدخر قوت عام، ثم يجد المحاويج فيدفع إليهم ما ادخره، ويترك أهله، وتارة لكراهة الشبع، وكراهة لكثرة الأكل).

وقال ابن حجر[٢٠]: (إن كثيرًا من المسلمين كانوا قبل الهجرة في ضيق، فلما هاجروا إلى المدينة كان أكثرهم في عوز، فواساهم الأنصار بأموالهم ومنازلهم، فلما فتحت لهم النضير وما بعدها أثْروْا، وردوا إلى الأنصار أموالهم ومنازلهم).

ـ فقر بيوت نساء النبي صلى الله عليه وسلم:

أسس من يكتبون عن فقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنيانهم على بعض الأحاديث الواردة على لسان السيدة عائشة رضي الله عنها، مثل:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ لِعُرْوَةَ: "إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَارٌ، فَقُلْتُ: يَا خَالَةُ، مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِيرَانٌ مِنْ الْأَنْصَارِ كَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَلْبَانِهِمْ فَيَسْقِينَا" [٢١].

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: "مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ خُبْزِ بُرٍّ مَأْدُومٍ، ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ" [٢٢].

وهذه الأحاديث الصحيحة التي لا نستطيع إنكارها إنما هي لقطة أو مشهد من تاريخ طويل من الزمن أراد من أراد توظيفها في الدلالة على فقر الرسول صلى الله عليه وسلم سحبها ووصم كل زمن الرسول صلى الله عليه وسلم بها في بيوتاته وخارجها.

ومع إقرارنا بصحة الأحاديث السابقة إلا أن هناك أحادبث تشيع على قدر ما في إسنادها من ضعف، مثل:

روى أبو سعيد مالك بن سنان (الخدري) الأنصاري رضي الله عنه: "أن النبي صلّى الله عليه وسلم كان إذا تغدى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغد".

قال العراقي: لم أجد له أصلاً في المرفوع ورواه البيهقي في الشعب من فعل أبي جحيفة، وقال ابن السبكي: (٦/ ٣٣٥) لم أجد له إسنادًا.

قال النبي صلّى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها: "إياك والسرف فإن أكلتين في كل يوم من السرف".

قال العراقي: رواه البيهقي في الشعب من حديث عائشة وقال: في إسناده ضعف[٢٣].

هذه الصورة الشديدة القتامة لمعاش القوم في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ربما أنها تعكس لنا فترات استثنائية في حياة المجتمع وليست النمط السائد على الدوام حيث يكاد يكون من المحال فعلاً أن تكون حياة الناس بهذه الصورة المزرية. إن بعض المصادر التي استعنا بها في التعرف على الوضع المعاشي للناس في عصر الرسول صلى الله عليه وسلمٍ هيَّ نفسها التي يمكن أن تقدم لنا صورة مغايرة للصورة الأولى وخاصةً فيما يتعلق بمعاش رسول صلى الله عليه وسلم، ولو كان الأمر مستديمًا والجوع فاشيًا لانتشرت بينهم الأوبئة والأمراض ولتعذر عليهم القيام بفرائض الصلاة والجهاد وكسب العيش والدعوة في سبيل الله. والانطباع الذي يمكن أن يخرج به الدارس هو أن مجتمع المدينة في عصر ربما لم يكن في بحبوحة العيش في بعض أيامه ربما لضيق ذات اليد أو للزهد في معاش الدنيا ولكنه لم يكن بحال في مسغبةٍ مميتة كما توحي به بعض الروايات السابقة[٢٤].
ويشار ها هنا إلى أنه صلى الله عليه وسلم مع تلك الحال التي كان عليها من الزهد في الدنيا ما كان ليضيع حاجات أهله وما يلزمهم لمعاشهم، حاشا وكلا، ويوضح هذا أنه صلى الله عليه وسلم لما فتح الله عليه البلاد وكثرت الغنائم كان يرصد لأهله قوت سنة[٢٥].
والتمر والماء كما يرى صاحب فتح الباري من غالب قوت أهل المدينة، ووجودهما يعني السَعة ودفع الجوع[٢٦].
ومارُويَّ عنه صلى الله عليه وسلم أنه خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير، فإن ذلك لم يكن منه في كل أحواله لعوَزٍ ولا ضيقٍ، وكيف ذلك وقد كان الله أفاء عليه قبل وفاته بلاد العرب كلها، ونقل إليه الخراج من بعض بلاد العجم كأيلة والبحرين وهجَرٍ؟! ولكن كان بعضه لما وصفت من إيثار نوائب حقوق الله، وبعضه كراهيةً منه للشبع وكثرة الأكل، فأنَه كان يكرهه ويؤدِّب أصحابه به [٢٧].

ـ رهن النبي صلى الله عليه وسلم درعه:

بدعوى الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تارة[٢٨]، ومن ينكرون السنة تارةً أخرى، يقفون أمام بعض المواقف من السيرة المطهرة موقف المنكر لها وإن جاءت عبر كتب الأحاديث المعتبرة ولو كانا البخاري

ومسلم، ومن أشهر تلك الأحاديث حديث رهن النبي صلى الله عليه وسلم درعه عند يهودي، وهو نفس الحديث الذي يتخذه من يقيمون الحجة على فقر النبي صلى الله عليه وسلم.

عن عائشة رضى الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترى طعاماً من يهوديٍّ إلى أجلٍ ورهنهُ دِرعًا من حديدٍ [٢٩].

يتصور من يصل إلى مسامعه كلمة الرهن أنها دليلٌ على الفقر، ولقد عشنا وعاصرنا من يرهن بعض أملاكه مع يساره لبعض البنوك، لحاجته للمال في صفقاته وذلك حتى لا يبدد السيولة التي بيده.

وملابسات ما تم بين النبي صلى الله عليه وسلم واليهودي لم يخرج عن كونه بيع وشراء، سلم البائع السلعة نظير ضمانٍ لكونه يهودي لا يثق إلا فيما تحت يديه، فترك النبي درعه عنده رهنًا لا ثمنًا، وهو ما يُسمي بالشراء بالنسيئة أي بالأجل، وقال ابن بطال: الشراء بالنسيئة جائز بالإجماع.

تأخر الرسول صلى الله عليه وسلم في دفع ثمن الشعير ـ وكان أكثر قوت ذلك العصرـ إذ أدركه الموت صلى الله عليه وسلم ثم افتكها أبو بكر رضي الله عنه على قول أو علي بن أبي طالب في قول آخر.

وفي هذا الحديث ما يؤكد زهد النبي صلى الله عليه وسلم، وتقلله من الدنيا وعدم إقباله عليها، فلم يدخر لنفسه شيئًا، وأن الذي دفعه لرهن درعه ليس مما يقع في ظن الناس حين يرهن أحدهم بعض ما يملك نتيجة إسرافه أو التوسع في معيشته بأكثر ما يفوق طاقته، وإنما رهن الرسول صلى الله عليه وسلم درعه راضيًا لما ينفقه من ماله على الفقراء والمحتاجين، أو كما يقول ابن حجر[٣٠]: (ومع كونه صلى الله عليه وسلم كان يحتبس قوت سنةٍ لعياله فكان في طول السنة ربما استجرَّه منهم لمن يرِدُ عليه، ويعوِّضهم عنه).

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم بمقتضى شواهد التاريخ فقيرًا، لكن فقره كان من نوع الفقر الاحتياجي الإرادي الذي يرفع أصحابه بين العالمين.فحين خُيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه بين الغنى والفقر، اختار الفقر على الغنى وشرح ذلك قائلاً: أجوع يومًا فأصبر فيكون خيرًا لي، وأشبع يومًا فأشكر فيكون خيرًا لي[٣١].

والرسول صلى الله عليه وسلم رهن درعه، ليبيين مشروعية الرهن وإن كان يهوديًا، وإن كان المرهون درعًا أي "سلاحًا"، ليبين جواز بيع السلاح

ورهنه وإجارته وغير ذلك من الكافر ما لم يكن حربيًا أي محاربًا بل من أهل الذمة معاهدًا، أما في معاملته صلى الله عليه وسلم ذلك اليهودي وهو الكافر دون صحابته من المياسير رضوان الله عليهم إنما مرده ربما علمه أنهم قد لا يقبضون منه الثمن، أو العوض عنه، أو أخذ درعه رهنًا، فلم يُرِد صلى الله عليه وسلم التضييق عليهم.

يرى الدكتور محمد السمانٍ [٣٢]أن النبي صلى الله عليه وسلم (لم يمت مدينًا، وإنما اشترى سلعةً إلى أجل، وتوفى قبل أوان سداد الثمن، ورهن الدرع يقوم مقام السداد الفعلي).. وأري أنه إذا كان الرهن يقوم مقام الثمن، ولكنه في النهاية دين، بل هو تكلفة إضافية على المدين، إذ ليس كل مدين يستطيع أن يقدم رهنًا لدينه. أضف لذلك أن الرهن نوع تبرع إلى الدائن. لأن المدين يحبس الرهن لدى الدائن دون عوض، وهذا مما يشجع المدين على الوفاء، لأن (ملك الإنسان متى صار محبوسًا عنه بدين يتسارع إلى فكاكه بإيفاء الدين)[٣٣].

كما أن الرهن في الشرع: المال الذي يُجْعَل وثيقة بالدين ليستوفي من ثمنه إن تعذر استيفاؤه ممن هو عليه، ولو رجع الدكتور للنقولٍ التي أثبتها في كتابه في هذا الشأن لقرأ فيها كلمة "دين" ذُكِّرت صراحةً أكثر من مرة، ومنها: قول ابن بطال (...أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكون عليه الدَّين...)...وغيرها كثير، ومديونية الرسول صلى الله عليه وسلم لاتعني أنه مات فقيرًا، بل مات صلى الله عليه وسلم مديونًا، وأنه صلى الله عليه وسلم كان راهنًا وأن درعه كان ثمنًا للشعير، وكان الرهن مقابل ديَّن.

سمو الفقر عند
النبي صلى الله عليه وسلم

عبر فصلين ماتعين من كتابه: "وحي القلم"، يرصد المفكر الكبير مصطفى صادق الرافعي[٣٤] مفهومه عن الفقر والزهد في حياة وفكر رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، ولكن بنظرة خلعت على مفهوم الإصلاح الإجتماعي في أغلبه وإن لم ينسَ دور النبوة والرسالة فيه، فعنوْن للفصلين بعنوانٍ واحد، هو: "سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم".

والحق الذي يستطيع القاريء أن يستنبطه من غاية أديبنا الكبير فيما يريده من وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بالمصلح الاجتماعي الأعظم، ليس لرفضه نبوته صلى الله عليه وسلم أو مجاراة للمستشرقين في نهجهم غير المنصف وإنما لنظرة فكرية خالصة يراد من خلالها بسط نهج النبي صلى الله عليه وسلم في تعامله الحياتي وأسلوبه المعيشي مع الفقر من خلال رؤية مجتمعية عالمية لاتخص مجتمع بعينه أو دين بعينه، وهناك من وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بصفات من هذا القبيل مع اعترافهم بنبوته صلى الله عليه وسلم، غير أن الأمر حتى مع من لم يرَ فيه بأس إذا قرن بين النبوة والإصلاح إلا أنه أثار حساسية شديدة ونفور كاره لتلك التسميات أو هذه النعوت التي لم يتسم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لا من قِبَل ربه عز وجل أو من صحابته وأزواجه رضوان الله عليهم وعليهن أجمعين، وإذا كان الإصلاح هو غاية كل نبي، وإصلاح المجتمعات هو من القواسم المشتركة بين كل الديانات، ومنهج الرسالات، إلا أنها ليست الغاية الوحيدة من مهمة الرسل عليهم السلام، فقد كانت الغاية العظمى والأولى هو أن يتعبدون الناس لله تعالى، بأن يخرجونهم من عبادة العباد لعبادة رب العباد، والرسول والنبوة تجمعان كل المعاني الطيبة ولكن ليس كل من اجتمعت فيه المعاني الطيبة يستطيع أن يكون نبيًا رسولاً مهما تكاملت أخلاقه وسمت فالاصطفاء شرط أساسي، وإذا كانت النبوة شاملة لكل المعاني الطيبة، والصفات الجيدة، فهي أغني ما تكون من حاجتها لصفات أخرى من وضع البشر تشد أزرها.

فإذا تركنا هذه النقطة وشددنا رحالنا إلى بديع ما خط قلم معجزة الأدب العربي مصطفى صادق الرافعي الذي يباغتنا برفضه أن يوصف الرسول بالفقر مع اعترافه أنه كان فقيرًا، فيقول: (كان النبي صلى الله عليه وسلم على ما يصف التاريخ من الفقر والقلة، ولكنه كان بطبيعته فوق الاستغناء، فهو فقير لا يجوز أن يوصف بالفقر، ولا تناله المعاني النفسية التي تعلو بعرض من الدنيا وتنزل بعرض، فما كانت به خلة تحدث هدمًا في الحياة فيرممها المال، ولا كان يتحرك في سعي ينفق فيه من نفسه الكبيرة ليجمع من الدنيا، ولا كان يتقلب بين البعيد والقريب من طمع أدرك أو طمع أخفق، ولا نظر لنفسه في الحسبة والتدبير ليتدبر معيشته فيحْتلبها ذهبًا أو فضة، ولا استقر في قلبه العظيم ما يجعل للدينار معنى الدينار ولا للدرهم معنى الدرهم؛ فإن المعنى الحي لهذا المال هو إظهار النفس رابية متجسمة في

صورة تكبر في قدر من السعة والغنى؛ والمعنى الحي للفقر من المال هو إبراز النفس ضئيلة منزوية في صورة تصغر على قدر من الضيق والعسرة).

يرى الرافعي بأن فقر الرسول صلى الله عليه وسلم من معجزاته الكبرى التي لم يتنبه إليها أحد إلى الآن، وقد صدق فلم أقع على مثل هذه المقوله عند غيره، وفقر الرسول صلى الله عليه وسلم ليس في المال وهذا هو التصور الأقرب؛ إذ (خاص به ومن أين تدبرته رأيته في حقيقة معجزة تواضعت وغيرت اسمها، معجزة فيها الحقائق النفسية والاجتماعية الكبرى، وقد سبقت زمنها بأربعة عشر قرنا، وهي اليوم تثبت بالبرهان معنى قوله صلى الله عليه وسلم في صفة نفسه: ''إنما أنا رحمة مهداة'').

يستعرض الرافعي العصر الذي يحياه وقد صارت الفضيلة الإنسانية فيه من الألفاظ التاريخية. وأصبح الناس يحملون معانٍ وحشية في تصرفاتهم ومسلكهم ونظراتهم، وحتى المدنية لم تفلح في تهذيبهم بل كل ما نجحت في فعله أنها وضعت عقلاً في وحش، ولم يفلح كذلك علم الإجتماع أو الفلسفة أو العلم، من إزاحة هذا البلاء الماحق، فلا يجد بعد استعراضه هذا من منقذٍ للبشرية سوى "محمد" صلى الله عليه وسلم الذي يرى فيه درس هذا العصر في علاج مشاكله الإنسانية. ويرى أن فقره صلى الله عليه وسلم سيلقي درسًا على الدنيا العلمية الفلسفية، لا من كتاب ولا فكر، ولكن بأخلاقه وعمله وسيرته.

يقدم الرافعي السبب الجوهري لزهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول: (ونظرة نبينا صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوجود نظرة شاملة مدركة لحقيقة اللانهاية، فيرى بداية كل شيء مادي هي نهايته في التو واللحظة، فلا وجود له إلا عارضًا مارًا، فهو في اعتباره موجود غير موجود، مبتدئ منته معا؛ وبذلك تبطل عنده الأشياء المادية وتأثيرها، فلا تتصل بنفسه العالية إلا من أضعف جهاتها، ويجد لها الناس في حياتهم الشجرة والفرع والثمرة، وما لها عنده هو جذر ولا فرع؛ وبهذا لم يفتنه شيء ولم يتعلق به شيء).

يرى الرافعي بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما هو صورة أخرى من آدم "عليه السلام"؛ فكلاهما لمس بنفسه الحياة جديدة خالية مما جمع فيها الزمن وأهله من طمع وشره، وجاء آدم ليعطي الأرض ناسها من صلبه،

وجاء محمد ليعطي الناس قوانينهم في فضائله؛ فآدم بشخصه هو دنيا بعثت لتتسع، ومحمد بشخصه هو دنيا بعثت لتنتظم .

وحين يعاين الرافعي زهد النبي صلى الله عليه وسلم يراه مختلفًا عن زهد كل الناس، إلى الحد الذي ينفي فيه الزهد عنه صلى الله عليه وسلم؛ فالفقر وما إليه، والزهد وما هو بسبيل منه، والانصراف عن الشهوات والرذائل كل ذلك إن هو إلا تراجع النفس العالية إلى ذاتها النورانية حالاً بعد حال، وشيئًا بعد شيءٍ، لتضيء على المادة فتكشف حقائقها الصريحة فلا تباليها ولا تقيم لها وزنًا.

هذا هو زهد النفوس العالية من الناس من وجهة نظر الرافعي الذي يعترض على فقر الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فلا يسميه زهدا كما يظن الضعفاء ممن يتعلقون على ظاهر التاريخ ولا يحققون أصوله النفسية؛ وأكثرهم يقرأ التاريخ النبوي بأرواح مظلمة تريهم ما ترى العين إذا ما اختلط الظلام ولبس الأشياء فتراءت مجملة لا تفصيل لها، مفرغة لا تبيين فيها؛ وما بها من ذلك شيء، غير أنها تتراءى في بقية من البصر ولا تغمرها .

فالزهد عند الرافعي ما هو إلا أن يطرد إنسانٍ ما الجسم عنه وهو معه، وينصرف عنه وهو به متعلق. بينما كان زهد الرسول صلى الله عليه وسلم هو زهد القادر؛ فهو يملك المال ويجده، وكان أجود به من الريح المرسلة، ولكنه لا يدعه يتناسل عنده، ولا يتركه ينبت في عمله، وإنما كان عمله ترجمة لإحساسه الروحي، فهو رسول تعليمي، قلبه العظيم في القوانين الكثيرة من واجباته، وهو يريد إثبات وحدة الإنسانية، وأن هذا الإنسان مع المادة الصامتة العمياء مادة مفكرة مميزة، وإن الدين قوة روحية يلقى بها المؤمن أحوال الحياة فلا يثبت بإزائها شيء على شيئيته.

ولهذا تنزه النبي صلى الله عليه وسلم عن التعلق بالحياة، وزاده بُعدًا منها أنه نبي الإنسانية ومثلها الأعلى، فحياته الشريفة ليست كما نرى في الناس: إيجادًا لحل مسائل الفرد وتعقيدًا لمسائل غيره، ولا توسعًا من ناحية وتضييقًا من الناحية الأخرى، ولا جمعًا من هنا ومنعًا من هناك؛ بل كانت حياته بعد الرسالة منصرفة إلى إقرار التوازن في الإنسانية، وتعليم الجميع على تفاوتهم واختلاف مراتبهم كيف يكون لهم عقل واحد من الكون؛ وبهذا العقل الكوني السليم ترى المؤمن إذا عرض له الشيء من الدنيا يفتنه أو يصرفه عن واجبه الإنساني أبت نفسه العظيمة إلا أن ترتفع بطبيعتها، فإذا

هو في قانون السمو، وإذا المادة في قانون الثقل؛ فيرتفع وتتهاوى ويصبح الذهب ـ وإنه ذهب ـ وليس فيه عند المؤمن إلا روح التراب.

يفرق الرافعي بين التراب الذي يصبح مقياسًا عند المؤمن الحق يقيس به كل منافع الدنيا وملذاتها ومباهجها بحسب قانون السمو المغروس في نفسه العظيمة، وبين هؤلاء الذين تعيش أنفسهم في التراب، ويتمرغون بأخلاقهم فيه، ينقلبون على الحياة من صنع التراب ناسًا دودًا كطبع الدود لا يقع في شيء إلا أفسده أو قذره؛ أو قومًا سوسًا كطبع السوس لا ينال شيئا إلا نخره أو عابه، فهم يوقعون الخلل في نظام أنفسهم، فإذا هي طائشة تخيل لهم كأنما اختلت نواميس الدنيا، وبين التراب حين يلتقي بالصفاء النبوي: (هذا هو سيد الأمة، يمسكه في الحياة نبيًا عظيمًا ما يخرج غيره منها ذليلاً محتقرًا، وكأنما أشرق صفاء نفسه على تراب الأرض فرده أشعة نور، على حين يُلقي الناسُ على هذا التراب من ظلام أنفسهم فلا يبقى ترابًا بل يرجع ظلامًا، فكأنهم إذ يمشون عليه يطؤون المجهول بخوفه وروعته؛ ثم لا يستقر ظلامًا بل يرجع آلاما، فكأنهم ينبتون على المرض لا على الحياة؛ ثم لا يثبت آلامًا بل يتحول فورةً وتوثبًا تكون منه نزوات الحمق والجنون في النفس).

يسرد الرافعي بعضًا من أشهر الأحاديث التي تساق للدلالة على فقر الرسول صلى الله عليه وسلم ـ بزعم من يقول هذا ـ من وضعه الحجر على بطنه الشريف صلى الله عليه وسلم من شدة الجوع ودفعًا له، ودرع النبي صلى الله عليه وسلم المرهونة عند يهودي، وأن خبز أزواج النبي الطاهرات رضيَّ الله عنهن الشعير، ثم يضفي عليها مفهومًا جديدًا واعيًا، فيقول: (معنى خبز الشعير، والقلة والضيق، ورهن الدرع عند يهودي من سيد الخلق وأكملهم، ومن لو شاء لمشى على أرض من الذهب، فهو صلى الله عليه وسلم يعلم الإنسانية أن الرجل العظيم النفس لا يكون في الحياة إلا ضيفا نازلًا على نفسه. ومن معاني ذلك الفقر العظيم أن خبز الشعير هو رمز من رموز الحياة على التحلل من خلق الأثرة، والبراءة من هوى الترف؛ ورهن الدرع رمز آخر على التخلص من الكبرياء والطمع؛ والعسرة رمز ثالث على مجاهدة الملل الحي الذي يفسد الحياة كما يفسد بعض النبات النبات. ومجموع هذه الرموز رمز بحاله على وجوب الإيقاظ النفسي للأمة العزيزة التي تقود أنفسها بمقاساة الشدائد ومجاهدة الطباع، لتكون في كل فرد مادة الجيش، وليصلح هذا الجيش قائدًا للإنسانية).

فإذا قرأت الأحاديث التي أسلفناها فلا تقرأها زهدًا وتقللا، ولا فقرا وجوعا، ولا اختلالا وحاجة، كما تترجمها نفسك أو تحسها ضرورتك؛ بل انظر فيها واعتبرها بنفسه هو صلى الله عليه وسلم، ثم اقرأها شريعة اجتماعية مفصلة على طبيعة النفس، قائمة على أن تأخذ نفس الإنسان من قوى على طبيعة النفس، قائمة على أن تأخذ نفس الإنسان من قوى الدنيا عناصرها الحيوية، لتعطي الحياة من ذلك قوة عناصرها.

ذلك أن فقر النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه لم يكن له عتيد حاضر، وأنه لم يجعل نفسه في هم المال، ولا جعلته نفسه في هم الفقر، وأنه لقي الحياة حاملا لا محمولًا، واستقر فيها هادئًا لا مضطربا، كل ذلك إنما يثبت للدنيا أنه خلق وبعث وعاش ليكون درسًا عمليا في حل المشكلات الاجتماعية، يعلم الناس أنها لا تتعقد بطبيعتها، ولكن بطبائعهم فيها، ولا تستمر بقوتها، ولكن بإمداد قواهم لها؛ ولا تغلب بصولتها، ولكن بجزعهم منها؛ ولا تعضل من ذات نفسها، ولكن من سوء أثرهم عليها وسوء نظرهم لأنفسهم ولها.

الرافعي يرفض رفضًا باتًا أن يكون خبز الشعير، والجوع، و رهن الدرع عند اليهودي مرده الفقر بل هناك حقيقة نفسية عقلية، ثابتة متزنة، قائمة بعناصرها السامية: من اليقين والعقل والحكمة، إلى الرفق والحلم والتواضع.

تخبر هذه الدنيا العلمية الفلسفية المفكرة أن ذلك النبي العظيم هو الرجل الاجتماعي التام بأخلاقه وفضائله، وهو الذي بعث لتنقيح غريزة تنازع البقاء، وكسر هذه الحيوانية، وقمع نزواتها، وإماتة دواعيها، والسمو بخواطرها؛ فهو بنفسه صورة الكمال الذي بعث لتحقيقه وإثبات أنه الممكن لا الممتنع، والحقيقي لا الخيالي. كما أنه صلى الله عليه وسلم حث على طلب اليسار، والتغلل من الأعمال الشريفة بالغلة والمال من خلال أحاديث كثيرة مروية، هي تمام القانون الأدبي الاجتماعي في الدنيا، تثبت أن الحي إن هو إلا عمل الحي.

يستدرك الرافعي بأنه لو كان حتى الرسول صلى الله عليه وسلم كان فقيرًا، فما معنى الفقر الذي أقام عليه، فيقول: (ولكن حين يكون سيد الأمة وصاحب شريعتها رجلاً فقيرًا، عاملا مجاهدًا، يكدح لعيشه، ويجوع يوما ويشبع يوما، فلم يقلب يده في تلاد من المال يرثه، ولم يجمعهما على طريف منه يورثه، فذلك هو ما بيناه وشرحناه، وذلك كالأمر نافذا لا رخصة فيه، على ألا يتخذ الغني من الفقير عبدا اجتماعيا لفقر هذا ولمال ذاك؛ بل هي

المساواة النفسية لا غيرها وإن اختلفت طبقات الاجتماع، والأكرم هو الأتقى لله بمعنى التقوى، والأقوم بالواجب على معنى الواجب، والأكفأ للإنسانية في معاني الإنسانية. فقر ذلك السيد الأعظم ليس فقرًا، بل هو كما رأيت، ضبط السلطة الكائنة في طبيعة التملك، لقيام التعاون الإنساني على أساسه العملي؛ هو المحاجزة العادلة بين المصالح الاقتصادية الطاغية، يمنع أن تأكل مصلحة مصلحة فتهلك بها، ويوجب أن تلد المصلحة مصلحة لتحيا بها. والنبي الفقير العظيم هو في التاريخ من وراء كل هذه المعاني، كالقاضي الجالس وراء مواد القانون صلى الله عليه وسلم).

لقد قرأ أديب العربية الكبير مصطفى صادق الرافعي فقر وزهد الرسول صلى الله عليه وسلم قراءةً صحيحة مبنية على قراءته للإسلام كدين قراءة صحيحة، أفاض عليها من سابغ بيانه، ما وضح أركانه بمعانٍ جديدة ضافية قد تغيب عن غيره، فقدم هذه القراءات التي تتفق وروح الإسلام الذي جاء عالميًا، ورسول أتى خاتمًا للنبوات، وكافةً للناس.

هوامش الباب الثاني:

[١]محمد الغزالي: الطريق من هنا (١٤٦/١).
[٢] دكتور محمد مصطفى الزحيلي، تقدمة كتاب دراسة موضوعية في السيرة المالية للنبي صلى الله عليه وسلم ص٣.

[٣] هذا الحديث رواه الترمذي (٢٣٥٢) عَنْ أَنَسٍ رضي الله. وقَالَ الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ. ورواه ابن ماجه (٤١٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وقد ضعفه كثير من أهل العلم، وقال عنه ابن كثير في "البداية والنهاية" (٧٥/٦): حديث ضعيف، لا يثبت من جهة إسناده، لأن فيه يزيد بن سنان أبا فروة الرَّهاويّ وهو ضعيف جداً، والله أعلم. وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذا الحديث فقال: هذا يُرْوَى ، لكنه ضعيف لا يثبت.

[٤] مركز الفتوى، موقع إسلام ويب: النبي صلى الله عليه وسلم بعث فقيرًا وقبض غنيًا، رقم الفتوى: ١٤٤٠٧٣، الأحد ٢٨ ذو الحجة ١٤٣١ ـ ٥-١٢-٢٠١٠.

[٥] سورة الأنفال: (٤١).
[٦] سورة الحشر: (٦-٧).

[٧]أنظر الأحاديث التي أوردها أحمد بن علي محمد الكناني (العسقلاني) بكتابه: التلخيص الحبير"أحاديث الأحكام".

[٨] أنظر، [التلخيص الحبير (الهبة)، سنن الترمذي (اللباس)، سنن النسائي (الزينة)، كتاب السنن الكبرى (صلاة الخوف)، صحيح البخاري (الهبة وفضلها والتحريض عليها)، صحيح مسلك (فضائل الصحابة)، مسند الإمام أحمد (باقي مسند المكثرين)]. أما أكيدر دومة، فهو أُكَيْدِرُ بن عبد الملك صاحب دومة الجندل.

[٩] التلخيص الحبير(الزكاة ـ الهبة)، سنن أبي داود (الخراج وامارة الفيْ)، سنن الدارمي (السير)، صحيح البخاري (الجزية).

[١٠] انظر "زاد المعاد" (١٣٠/١-١٣٥).

[١١]البخاري ،كتاب المغازي، باب: مرض النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ،

ووفاته (٧/٧٥٥) رقم (٤٤٦١).
[١٢] عبدالفتاح محمد السمان: تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع أمواله كسبًا (مصادر أموال النبي صلى الله عليه وسلم).
[١٣] فتحى رضوان: محمد الرسول الأعظم (ص ١٠٨ـ١٠٩).
[١٤] نظمى لوقا: محمد في حياته الخاصة ص١٥.
[١٥] كليمان هوار: تاريخ العرب، ج١.
[١٦] دكتور عبد الحليم عويس: دراسة حديثة عن الاقتصاد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، عرض وتلخيص أحمد مصطفى عبد الله.
[١٧] الإمام محمد أبو زهرة، خاتم النبين صلى الله عليه وسلم ص ١٩٩.
[١٨] الغزالي، إحياء علوم الدين (٢/٢١٧).
[١٩] دكتور أحمد محمد الحوفي، من أخلاق النبى (ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥).
[٢٠] ابن حجر، شرح الزرقاني (٤/٣٢٠).
[٢١]صحيح البخاري (كِتَاب الْحَجِّ) أَبْوَابُ الْمُحْصَرِ وَجَزَاءِ الصَّيْدِ – حديث رقم ٢٣٩٢.
[٢٢]صحيح البخاري (كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ) سُورَةُ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ – حديث رقم ٦٢٢٣.
[٢٣]الألباني سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، المجلد الأول،حديث رقم(٢٥٠).
[٢٤] دكتور محمد بن فارس الجميل: الأطعمة والأشربة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ص١٣١،٢٠.
[٢٥] خالد بن عبد الرحمن الشايع: "الحياة البيتية للنبي صلى الله عليه وسلم"، ص١١.
[٢٦] الإمام ابن حجر: فتح الباري (٥/١٩٩).
[٢٧] شرح البخاري لابن بطال (١٨/٩٧).
[٢٨] محمد أمين شيخو: حقيقة محمد في القرن العشرين.
[٢٩] صحيح البخاري: كتاب البيوع، باب: شراء النبي صلى الله عليه وسلم بالنسيئة، رقم (٢٠٦٨).
[٣٠]فتح الباري لابن حجر (١٥/٢١٤).
[٣١] دكتور طه حبيشي: ضلالات منكري السنة.

[٣٢] عبد الفتاح محمد السمان: دراسة موضوعية للسيرة المالية للنبي صلى الله عليه وسلم.

[٣٣] سامي السويلم: موقف الشريعة الإسلامية من الدين، ص٤٥،مجلة بحوث الإقتصاد الإسلامي١٩٩٦.

[٣٤] مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم ج٢ ص ٤٤-٥٦، راجعه واعتنى به دكتور درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.

الباب الثالث

الزهد ..بين التنظير و التطبيق ..

الزهد .. أسلوب ومنهاج للحياة

منهاج الرسول صلى الله عليه وسلم مع الصحابة

منهاج الرسول صلى الله عليه وسلم مع أزواجه

منهاج الرسول صلى الله عليه وسلم مع ابنته

الزهد منهاج للحياة.......... الإقتصاد: نموذجًا

الزهد ..أسلوب حياة..

لماذا منهاج الرسول صلى الله عليه وسلم وليس المنهج؟ وهل بينهما فرق؟.. نعم، بينهما فرق؛ فالمنهج يعني: أسلوبًا في التفكير، وخطوات عملية منظمة تهدف إلى حل مشكلة أو معالجة أمر من الأمور..وهو برنامج عمل في البحث العلمي، وفي نقل النظري إلى التطبيق، وفي التخطيط للمستقبل وفق نظرة بصيرة [١]، ولفظ المنهج ليس غريبًا على الحضارة الإسلامية، غير أن اللفظ الذي ورد في القرآن الكريم ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[٢]، واستعمل لفظ "المنهاج" وليس "المنهج"، ولقد ورد كذلك في السنة المطهرة في الحديث: ''تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها''[٣]، عن النعمان بن بشير قال: كنا قعودًا في المسجد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان بشير رجلاً يكف حديثه، فجاء أبو ثعلبة الخشني فقال: يا بشير بن سعد! أتحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمراء؟ فقال حذيفة: أنا أحفظ خطبته، فجلس أبو ثعلبة، فقال حذيفة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى

مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ،ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ. ثُمَّ سَكَتَ". وروى الحديث أيضًا البيهقي في منهاج النبوة، والطبري، والحديث صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، وحسنه الأرناؤوط. ،فالمنهاج هو الطريق أو الشريعة، في حين أن المنهج طريقة في الاستدلال. المنهاج أسلوب حياة، نظام أخلاقي واجتماعي وسياسي، في حين أن المنهج أقرب إلى طريقة النظر[٤].

ولهذا فإن الزهد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كان منهاجًا، لأنه كان ـ بحق ـ أسلوب حياة. إن المطالع لأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم يجدها تجسيدًا لأخلاق الإسلام سواء أكان ذلك بفطرته المجبول عليها، أو بعد تكليفه بالرسالة الخاتمة، مما ينفي عنه الازدوجية والقبلية والبعدية في التطور الأخلاقي له صلى الله عليه وسلم؛ ولذا فإن الزهد الذي كان يدعو أو يلتزم به الرسول صلى الله عليه وسلم التزامًا منه بالعمل من أجل الجماعة باعتبار الإسلام دين الجماعة، ويد الله مع الجماعة[٥].

ومع هذا نجد من جاء ينفي عن الإسلام صفة الزهد بالكلية وحجته في هذا "أن الإسلام هو دين المحاربين، والموجه نحو القيم الدنيوية، وأنه لم يكن أبدًا دين تقوى وإخلاص" [٦].

تكذبه في دعواه تلك، الأحاديث النبوية التي جاءت متماشية مع الآيات القرآنية في وقف تيار الشهوة الجامح والطامح بالنفس الإنسانية نحو حب التملك بلا حدود بل جعل الله تلك الملكية الفردية حق فردي روعيت فيه مصلحة الجماعة، وروعيَ فيه حسن تصرف الفرد فيما استخلفه الله من ملكه، فعليه أن يراعي حق الجماعة إلزامًا لا تطوعًا، كما عليه أن يراعي أمانة الإستخلاف [٧].

ولقد طالت الفترة المكية عن مثيلتها المدنية لأنها كانت مرحلة التأسيس وتمكين العقيدة من النفوس، لذا فقد استلزمت من الرسول صلى الله عليه وسلم بذل الجهد وأقصى الطاقة من خلال انتهاجه وسائل شتى في سبيل تعليم الصحابة رضي الله عنهم مثل: اعتماد أسلوب النموذج والملاحظة والخبرة، وطرح الأسئلة، وضرب الأمثلة، وسرد الأخبار والقصص، وكذلك طريقة

الاستدلال بالمناظرة والمحاورة وإقامة الحجة، وهي وسائل من أفضل الطرق التي تزود المتعلم بالمهارات والمعلومات وتظهر بشكل أفضل في "تعلم العبادات" من وضوء وصلاة[٨].

لقد قامت تلك العلاقة الخاصة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين الصحابة رضوان الله عليهم من خلال عدة ركائز أساسية، وهيَ التي ساهمت في تغييرهم ذلك التغيير الجوهري الذي لاحظه المستشرقون وغيرهم، فغير الإيمان به صلى الله عليه وسلم،محبتهم إياه صلى الله عليه وسلم، وتصديقهم له النابع من صدقه فيهم صلى الله عليه وسلم في جاهليتهم وإسلامهم، والذي اقتضى الاقتداء به لأمانته في قوله وفعله ومخبره ومظهره، وباطنه وظاهره، وسره وعلانيته.

ونبى القرآن كان في حياته الخاصة المثال الأول، والأزكى، والأرقى، لكل ما أرضى به الله ووجه إليه العباد.. أمر الله بفرائض، وحث على نوافل، وأحل حلالا، وحرم حرامًا، وضع حدودًا، وساق عبرًا إنك واجد ذلك كله" نظريًا " في كتاب الله، ولكنك واجد التنفيذ" العملي" له ظاهرًا وباطنًا في سيرة محمد نبي القرآن[٩].

كان صلى الله عليه وسلم يعلم أن الله تعالى سيجري على أيديهم النصر وفتوح البلدان، والدخول إلى أراضي الحضارات التليدة التي لا تعرف غير مباهج الدنيا وملذاتها، فأعمل النحت في قلوبهم للتقلل من الانصرف إلى الدنيا بالكلية، وذلك بتثبيت أركان العقيدة والتوحيد ومعالم الدين ووسائله وغاياته، فتارة يسوق النصح، وتارة يكر عليهم بالتحذير الذي يشبه الوعيد من مغبة الوقوع في المهالك وخسران الدنيا والآخرة بخسران الدين، ذلك الدين الذي هو من أعظم نعم الله تعالى عليهم والذي لا تعادله نعمةً من نعم الأرض جميعًا، بحيث تجدها ريًا وشبعًا وامتلاكًا وقناعةً حين ينطقها الواحد منهم "الحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة"، وحين يقولها الفارق عمر بكل الفخر والتباهي والتحذير: "إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله".

ولهذا فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلِّم الصحابة الكرام، ويحضَّهم دومًا على البذل، ويقتلع من نفوسهم حب الكنز، لتتوزّع الثروة بين الناس، ويشبع الرخاء في حياتهم، ولئلا يرتد المال المكنوز على صاحبه شؤمًا وعذابًا وسخطًا يوم القيامة، وكان الرسول الكريم الأسوة الحسنة لهم في ذلك والمثل الأعلى [١٠].

لقد كانت القيم الإسلامية ربانية المصدر، ونبي هذه الأمة صلى الله عليه وسلم مرسل من عند ربه، وقد تمثل هذه القيم أعظم تمثيل، فعاشها وبثها فيمن حوله حيث وجدوها منهاجًا لحياته أولاً قبل أن يطالبهم بها، ومنها قيمة الزهد بمفهومه الإسلامي الصحيح الوسطي المعتدل بين الإسراف والتقتير.

ومثلما لم يقرر الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين من بعده شكلاً معينًا للحكم، كذلك لم يقرر صلى الله عليه وسلم شكلاً واحدًا للزهد يتمسكون به أو يقيمون عليه، بل ترك فيما يمكن أن نسميه أسسًا عامة قابلة للإجتهاد والحاجات وطاقة التحمل البشري، تراعي الفروق الفردية بين البشر، والظروف الاجتماعية، وهذه الأسس ثابتة من حيث المفهوم والمراد والغاية، نسبية من حيث التطبيق تبعًا للزمان والمكان، ومستمرة بحسب الحالة الصحية لمن ألزم نفسه بها، إذ لا ضرر ولا ضرار.

إن سلوكيات الرسول وتعاليمه وإرشاداته والنماذج العملية التي قدمها لتغيير من حوله لا يمكن أن تصدر من إنسان عادي فما بالك إذا كان أمي لا يقرأ ولا يكتب ونشأ في بيئة فقيرة في كل شيء، لا يعرف أكثر الناس فيها أي شكل من الثقافة أو المهارات الاجتماعية أو حتى آداب الحوار والمخاطبة وقواعد العلاقات الإنسانية السمحاء. وكثيرًا ما يفشل الشخص مهما بلغ تعليمه وثقافته في التخلص من عادة واحدة مثل التدخين أو سرعة الانفعال والغضب أو تغيير مظهره أو مواعيده ونظامه اليومي. لذلك يعتبر تغيير هذا العدد الكبير من العادات والسلوكيات "معجزة" بكل المعايير. لقد تم تعديل أغلب سلوكيات وعادات مئات الآلاف من البشر في وقت واحد وخلال عدد محدود من السنوات!!.. إننا لا شك أمام" معجزة "بكل المقاييس لأنها تمت في سنوات قليلة في عمر المجتمعات البشرية وعلى مستوى جماعي لم ولن يحدث في تاريخ البشرية[١١].

ولذا فقد شكل الإيمان به صلى الله عليه وسلم، وتصديقه، ومحبته، دافعًا قويًا من دوافع الاقتداء به صلى الله عليه وسلم إن لم يكن من كمال الإيمان، فقد كان من السعي نحو كمال الإنسانية، ولما كانت قيمة الزهد وغيرها من القيم متوازنة فيه صلى الله عليه وسلم، فكانت كل خصلة من خصال الفضل التي أحلها الله رسوله فى أعلاها وخصه بذروة سنامها كما يقول الإمام ابن القيم: (فإذا احتجت بحاله صلى الله عليه وسلم فرقة من فرق الأمة ـ التى تفرّقت تلك الخصال وتقاسمتها ـ على فضلها على غيرها، أمكن الفرقة

الأخرى أن تحتجّ به على فضلها أيضًا. فإذا احتجّ به الغزاة والمجاهدون على أنهم أفضل الطوائف، احتج به العلماء والفقهاء على مثل ما احتج به أولئك. وإذا احتجّ به الزهاد والمتخلّون عن الدنيا على فضلهم، احتج به الداخلون في الدنيا والولاية وسياسة الرعية لإقامة دين الله، وتنفيذ أمره. وإذا احتج به الفقير الصابر، احتج به الغنيّ الشاكر)[١٢].

منهاج الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه

يكمن الزهد في إطاره الحقيقي بأنه في الأساس عمل من أعمال القلوب، تختص به الجوارح من حيث الهم والإقبال كمظهر مادي لآثاره، فإن اقتصر على الجوارح فقط خرج من دائرة الزهد بالكلية، ولهذا عمل الرسول صلى الله عليه وسلم على ترسيخها في قلوب الصحابة رضي الله عنهم على المدى الطويل، وعبر عدة آليات، منها التحذير المباشر من الدنيا وفتنتها،

ومنها النظر إلى حاله الكريم مع الزهد تطبيقًا لا تنظيرًا، فعلاً لا قولاً، ومنها ضرب الأمثلة، ومنها الحض المباشر بالإقبال على الآخرة والتقلل من متع الدنيا:

ـ التحذير المباشر من الدنيا:

''عَنْ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَوْفٍ الْأَنْصَارِيَّ وَهُوَ حَلِيفٌ لِبَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا، أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ صَالَحَ أَهْلَ الْبَحْرَيْنِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ، فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنْ الْبَحْرَيْنِ فَسَمِعَتْ الْأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ فَوَافَتْ صَلَاةَ الصُّبْحِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا صَلَّى بِهِمُ الْفَجْرَ انْصَرَفَ فَتَعَرَّضُوا لَهُ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ رَآهُمْ، وَقَالَ: "أَظُنُّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدْ جَاءَ بِشَيْءٍ، قَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَاللَّهِ لَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخَشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ''[١٣].
عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ''إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَتْ فِي النِّسَاءِ''[١٤].

ـ النظر إلى حاله الكريم صلى الله عليه وسلم مع الزهد:

عَنْ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى سَرِيرٍ مَرْمُولٍ بِشَرِيطٍ، تَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، مَا بَيْنَ جِلْدِهِ وَبَيْنَ السَّرِيرِ ثَوْبٌ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ فَبَكَى، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا يُبْكِيكَ يَا عُمَرُ؟"، قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ مَا أَبْكِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّكَ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، فَهُمَا يَعِيثَانِ فِيمَا يَعِيثَانِ فِيهِ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِالْمَكَانِ الَّذِي أَرَى، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَمَا تَرْضَى يَا عُمَرُ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ؟"، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "فَإِنَّهُ كَذَلِكَ"[١٥].

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي، أَنْ يَجْعَلَ بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، فَقُلْتُ: لا يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا، فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ، وَإِذَا شَبِعْتُ حَمِدْتُكَ وَذَكَرْتُكَ"[١٦].

عَنْ حَبِيبٍ، قَالَ: "قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنْ شِئْتَ أَنْ نُعْطِيَكَ خَزَائِنَ الأَرْضِ وَمَفَاتِيحَهَا مَا لَمْ يُعْطَ نَبِيٌّ قَبْلَكَ وَلا يُعْطَى مِنْ بَعْدِكَ وَلا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِمَّا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى؟ فَقَالَ: اجْمَعُوهَا لِي فِي الآخِرَةِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ: تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا سورة الفرقان آية ١٠"[١٧].
يقول عُقبة بن الحَارث: صلى بنا رسُول الله صلى الله عليه وسلم العَصر فأسرَع وأقبَل يشق الناس من سُرعته، ودخل إلى بيته، ثم لم يكن بأوشَك من أن خرَج فقال: "ذكرت شيئا من تبر كان عندي فخشيت أن يحبسني فقسمته" [١٨].

ـ ضرب الأمثلة:

"عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلًا مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: "أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ"، فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ، قَالَ: "أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟"، قَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟، فَقَالَ: "فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ""[١٩].
روى البخاري عن ابن عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: "لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ"[٢٠].

ـ الحض المباشر بالإقبال على الآخرة والتقلل من متع الدنيا:

روى الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ

الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ''[٢١].
روى الترمذي في سننه من حديث المِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ رضي اللهُ عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقُولُ: ''مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ؛ فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ: فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ''[٢٢].
عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ''مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ، آمِنًا فِي سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَقَدْ حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا، يَابْنَ آدَمَ، يَكْفِيكَ مَا سَدَّ جَوْعَتَكَ، وَوَارَى عَوْرَتَكَ، فَإِنْ كَانَ بَيْتٌ يُوَارِيكَ فَذَاكَ، وَإِنْ كَانَتْ دَابَّةٌ تَرْكَبُهَا فَبَخٍ، فَإِنَّ الْخُبْزَ وَمَاءَ الْجَرِّ وَمَا فَوْقَ الإِزَارِ حِسَابٌ عَلَيْكَ''[٢٣].

عَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: ''أَفْلَحَ مَنْ هُدِيَ إِلَى الإِسْلامِ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا، وَقَنَعَ بِهِ''[٢٤].
عن عبد اللَّه بن الشِّخِّير رضي اللَّه عنه أَنَّهُ قال: أَتيت النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ: ''أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ' قال: "يَقُولُ ابنُ آدَم: مَالِي، مَالِي، وَهَل لَكَ يَا ابن آدمَ مِنْ مالِكَ إلاَّ مَا أَكَلت فَأَفْنيْتَ، أو لبِستَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضيْتَ؟"[٢٥].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، قَالَ: مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟ قَالا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَمَّا أَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا. فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلا مِنَ الأَنْصَارِ، فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيْنَ فُلانٌ؟ قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ، إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِيُّ، فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَاحِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، مَا أَجِدُ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي، فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ. فَذَبَحَ لَهُمْ فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ [٢٦].

عَنْ أَبِي العَباس سَعدِ بنِ سَهلٍ السَّاعِدي رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النبي صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: يَا رَسُول الله: دُلَّني عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمَلتُهُ أَحَبَّني اللهُ، وَأَحبَّني النَاسُ؟ فَقَالَ: ''ازهَد في الدُّنيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وازهَد فيمَا عِندَ النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ'' [٢٧].

يأتي هذا الحديث باللفظ الصريح "الزهد" وبالنصح المقارب للأمر على سبيل الاستحباب "ازهد" لمن رغب واستطاع، والحديث من جوامع العلم النبوي بالدنيا والناس، وهو الطريق الموصل للفوز بحب الله تعالى، والمفتاح الرئيس للظفر بحب الناس، وهو الباب الكبير للراحة في الدارين الدنيا والآخرة لمن أرادهما معًا. ومن تأمل الحديث بعقل الخبير المجرب، وقلب المؤمن البصير استبان له معناه في غير خفاء، فمن أهم أسباب النكد والهم والشقاق والخصام واللدد هو التعلق بأوشاب الدنيا المتروكة، ومن أهم أسباب النفور بين الناس والمشاحنة والبغضاء الطمع فيما يملكون والتذلل بالسؤال أعطوا أو حرموا، ليكون العلاج الناجع لكلا الداءين هو الزهد.

تعلم الصحابة رضوان الله عليهم من معلمهم الأول صلى الله عليه وسلم المعنى الصحيح لقيمة الزهد كمفهوم يقف حائلاً بين السعي والكد والجد والتوكل، وبين التواني والتكاسل والتواكل، ولا يحملنهم التحلي به أن يقعدوا عن العمل والجهاد وعمارة الأرض بالزراعة والصناعة والتجارة، ولذا كان فيهم الأغنياء: أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وعبدالله بن عمر، ولم ينكر عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم، ويقوم هذا الدعاء منهم وحده خير دليل على ثاقب نظرهم، ونقاء فهمهم في التلقي عن نبيهم صلى الله عليه وسلم المعنى الجدير بالعلم والعمل، وصحيح النظرة العملية لدورهم في الدنيا، ودور الدنيا في حياتهم، وصحيح تمسكهم بدينهم الذي أنشأ فيهم التوازن والنظرة الوسيطة، والفهم المعتدل للأمور كلها، فما باعوا الدنيا للدين، ولا تنازلوا عن دينهم للدنيا؛ فقد كانوا يدعون ربهم بيقين: (اللَّهُمَّ زَهِّدْنَا فِي الدُّنْيَا، وَوَسِّعْ عَلَيْنَا مِنْهَا، وَلا تَزْوِهَا عَنَّا فَتُرَغِّبَنَا فِيهَا)[٢٨].

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يربي أصحابه على تمام التعلق بالله وحده[٢٩]، ومن ذلك نهيه صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يسألوا الناس شيئاً؛ فإن من احتاج إلى الناس نقص قدره عندهم وفاته من عبودية الله تعالى بحسب ذاك الاحتياج "والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له كان أقرب إليه، وأعزّ له، وأعظم لقدره؛ فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله؛ فأعظم ما يكون العبد قدرًا وحرمة عند الخلق إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم كنت أعظم ما يكون عندهم، ومتى احتجت إليهم ولو في شربة ماء نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم، وهذا من حكمة الله ورحمته، ليكون الدين كله لله، ولا يُشرَك به شيء[٣٠].

نفذ الرسول صلى الله عليه وسلم ـ باعتباره القائد الأعلى للجماعة الإسلامية وأسوتها الحسنة على مر الأجيال ـ نفذ (أخلاقية) العدل الاجتماعي التي تنبعث من الأعماق وتئول إلى ممارسة وسلوك وعمل تتبدى ملامحها في كل جزئية من جزئيات الحياة اليومية وكل منعطف من منعطفاتها؛ ابتداء بمسألة السُكنى والملبس والطعام والشراب داخل بيته وانتهاء بطبيعة علاقاته كنبي وقائد مع أبناء أمته، فأعطى بذلك الإشارة الحاسمة لكل الذين سيجيئون بعده فتحملهم الأحداث أو الجماهير إلى مراكز السلطة. وأشعل الضوء الذي على هديه سار خلفاؤه الراشدون، حكام العالم. وهم يتضورون جوعًا، وينامون على الحصى، ويأكلون الخل والزيت ويلبسون قمصانًا مرقعة لم يتجاوز سعر إحداها ـ يومًا ـ أربعة دراهم أو خمسة. ولقد ظل الضوء النبوي ـ وسيظل ـ رغم انطفاء العصر الراشدي مشعلاً لكي يبين لكل الواصلين إلى السلطة من المؤمنين الحقيقيين معالم الطريق[٣١].

حرص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بالتأكيد على الزهد يغرسه في قلوب الصحابة رضوان الله عليهم، فالتمسك به منجاة من الوقوع في الزلل، والحيدة عن الصراط، واتباع الهوى، والزيغ عن الحق، والانكباب على الشهوات، والمروق من الدين، والتحلل من المروءات، والارتكاس في الفتن، والإنغماس في الملذات، والقعود عن السعي والإعمار والجهاد، وطلب العلم، وحب التعبد لله تعالى، والتفلت من الطاعات، والتلذذ بالمعاصي، ولما لا؟!.. فالتمسك به إغلاق لأبواب الطمع والجشع والنهم والتكالب، والعبّ من المال

الحرام، وقبول الرشاوي، وفتح لأبواب المجاهدة والمراقبة والخشية من الله تعالى، والورع، والقنوع، والتفكر، والتطهر، والتبتل، وإعمار أرض الله بما يرضي الله، والعصمة من أكل أموال الناس بالباطل، وإرضاء خلق الله بما أمر به الله تعالى، وحفظ اللسان من الشهادة الزور، والحلف بالباطل، والغش في الموازين والمكاييل والمقاييس وأقوات الناس، ومن المبالغة في التسعير، والاحتكار.

تأثر الصحابة بزهد الرسول صلى الله عليه وسلم:

رأى بعض المستشرقين أن المعجزة الكامنة في الإسلام أنه لم يمت بموت الرسول الذي جاء به، وفي ذلك شهادة على شخصية الرجل، وعلى قوة الدين الذي أسسه، وقد صدق فكم ماتت رسالات بموت رُسلها وأنبيائها، بل كم ماتت أفكار ونظريات سريعًا بموت أصحابها، وتفرَّق بعدها من آمنوا بها ودافعوا عنها ونافَحوا، ومات رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم كما يموت البشر بأمْر ربِّ البشر سبحانه وتعالى، ومع هذا فما زالت رسالته باقية خالدة، وستبقى، ويزداد عدد المؤمنين بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ورسالته، لتشهد بصدق الإعجاز الخالد للرسول صلى الله عليه وسلم، وتشهد بإعجازه في تربيته الكريمة والقويمة والحازمة والهادئة والرحيمة لأصحابه رضوان الله عليهم، وذلك كما يقول الشيخ محمد الغزالي [٣٢]: (إن تربية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهذا الجيل معجزته الكبرى بعد

القرآن الكريم)، أو كما يقول الدكتور محمد عمارة[٣٣]: (ولقد كان من إعجاز مدرسة النبوة في دار الأرقم بن أبي الأرقم.. وفي الروضة الشريفة صناعة الجيل الفريد من الرجال والنساء الذين غيروا مضمون الحضارة والمدنية والثقافة ووجهة التاريخ).. إنهم بحق تلامذة الرسول صلى الله عليه وسلم.. ثلاثة وعشرون عامًا والوحي ينزل من السماء ومحمد يبلغ ويحدث، فتبليغه وحي، وكلامه سُنة، وفعله قدوة، والناس راضون والإسلام يعلو شأنه يومًا بعد يوم، ومن هذه المدرسة اندفع الرعيل الأول من المؤمنين إلى العالم يحملون قرآن - رب - محمد - صلى الله عليه وسلم - وأدبه، والقدر يخط لهم في صحائف المجد في فتوح البلدان ونور الإسلام يشع فيضيء الدجنة الحالكة بين الناس، تخرج فيها: أبو بكر في إدارته وحزمه، وعمر في تنظيمه وعدله، وعثمان في كرمه وحلمه، وعلي في شجاعته وزهده، وقادة الجيوش وأمراؤهم: خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص، وغيرهم من عباقرة الإسلام[٣٤].

فهل يُتَصوْر عقلاً أن يتنازل مثل هذا الجيل الفريد عن تعاليم ومفاهيم غرسها فيهم رسولهم وقدوتهم ومعلمهم الخير صلى الله عليه وسلم؟!.. أثبتت الوقائع التاريخية الإجابة الأكيدة والوحيدة على هذا السؤال، بإثبات الثبات ونفي التنازل، وشدة التمسك، وهذه شوارد من الشواهد تساق على سبيل الإشارة، لأنها من الغزارة بما لا يتسع معه المقام لتتبعها وإيرادها جملة:

عن أنس بن مالك، قَال: "لَقَدْ رَأَيْتُ بَيْنَ كَتِفَيْ عُمَرَ أَرْبَعَ رِقَاع فِي قَمِيصِهِ"[٣٥]. وعن زيد بن وهب، قال: "رَأَيْتُ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ إِلَى السُّوق، وَبِيَدِهِ دِرَّةٌ [٣٦]، وَعَلَيْهِ إِزَارٌ فِيهِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ رُقْعَةً، بَعْضُهَا مِنْ أَدَمٍ"[٣٧].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه مرَّ بقوم بين أيديهم شاة مصلية، فدعوه فأبى أن يأكل وقال: "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير" [٣٨].

جاء معاوية إلى أبي هاشم بن عتبة وهو صحابي أسلم يوم الفتح وسكن الشام جاء إليه يعوده وهو مريض فبكى أبو هاشم فقال له معاوية: يا خال ما يبكيك أوجع يشئزك - يعني: يقلقك - أم حرصٌ على الدنيا؟، قال: كلٌ لا. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إليَّ عهدًا لم آخذ به. قال: ''وإنما يكفيك من جمع المال خادمٌ ومركبٌ في سبيل الله، وأجدني اليوم قد جمعتُ''.

وفي رواية: "فلما مات حصل ما خلف فبلغ ثلاثين درهمًا وحسبت فيه القصعة التي كان يعجن فيها وفيها يأكل"[٣٩].

عَنْ أنس قَالَ: اشْتَكَى سَلْمَانُ [الفارسي]، فَعَادَهُ سَعْدٌ فَرَآهُ يَبْكِي، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: مَا يُبْكِيكَ يَا أَخِي، أَلَيْسَ قَدْ صَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَلَيْسَ أَلَيْسَ، قَالَ سلمان مَا أَبْكِي وَاحِدَةً مِنَ اثْنَتَيْنِ، مَا أَبْكِي ضِنًّا لِلدُّنْيَا، وَلَا كَرَاهِيَةً لِلْآخِرَةِ، وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَهِدَ إِلَيَّ عَهْدًا فَمَا أُرَانِي إِلَّا قَدْ تَعَدَّيْتُ، قَالَ: وَمَا عَهِدَ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَهِدَ إِلَيَّ أَنَّهُ يَكْفِي أَحَدَكُمْ مِثْلُ زَادِ الرَّاكِبِ، وَلَا أُرَانِي إِلَّا قَدْ تَعَدَّيْتُ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا سَعْدُ، فَاتَّقِ اللَّهَ عِنْدَ حُكْمِكَ إِذَا حَكَمْتَ، وَعِنْدَ قَسْمِكَ إِذَا قَسَمْتَ، وَعِنْدَ هَمِّكَ إِذَا هَمَمْتَ.قَالَ ثَابِتٌ: فَبَلَغَنِي أَنَّهُ مَا تَرَكَ إِلَّا بِضْعَةً وَعِشْرِينَ دِرْهَمًا، مِنْ نَفَقَةٍ كَانَتْ عِنْدَهُ [٤٠].

جاء في صحيح مسلم وعند الإمام أحمد رحمهم الله جميعًا، يحكي ربيعة بن كعب الأسلمي، فيقول:كُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَقُومُ لَهُ فِي حَوَائِجِهِ نَهَارِي أَجْمَعَ، حَتَّى يُصَلِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ، فَأَجْلِسَ بِبَابِهِ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ أَقُولُ لَعَلَّهَا أَنْ تَحْدُثَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَاجَةٌ. يقول ربيعة: فَمَا أَزَالُ أَسْمَعُهُ يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:سُبْحَانَ اللَّه، سُبْحَانَ اللَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، حَتَّى أَمَلَّ، فَأَرْجِعَ، أَوْ تَغْلِبَنِي عَيْنِي، فَأَرْقُدَ..فَقَالَ لِي يَوْمًا لِمَا يَرَى مِنْ خِفَّتِي لَهُ، وَخِدْمَتِي إِيَّاهُ: "سَلْنِي يَا رَبِيعَةُ أُعْطِكَ". يقول ربيعة:فَقُلْتُ: أَنْظُرُ فِي أَمْرِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ أُعْلِمُكَ ذَلِكَ.،قَالَ: فَفَكَّرْتُ فِي نَفْسِي، فَعَرَفْتُ أَنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ زَائِلَةٌ، وَأَنَّ لِي فِيهَا رِزْقًا سَيَكْفِينِي، وَيَأْتِينِي، قَالَ: فَقُلْتُ: أَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِآخِرَتِي، فَإِنَّهُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْمَنْزِلِ الَّذِي هُوَ بِهِ.قَالَ: فَجِئْتُ، فَقَالَ: "مَا فَعَلْتَ يَا رَبِيعَةُ؟" قَالَ: فَقُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَسْأَلُكَ أَنْ تَشْفَعَ لِي إِلَى رَبِّكَ، فَيُعْتِقَنِي مِنَ النَّارِ.

وفي رواية مسلم: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ.قَالَ: فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ أَمَرَكَ بِهَذَا يَا رَبِيعَةُ"؟ قَالَ: فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَمَرَنِي بِهِ أَحَدٌ، وَلَكِنَّكَ لَمَّا قُلْتَ: سَلْنِي أُعْطِكَ. وَكُنْتَ مِنْ اللَّهِ بِالْمَنْزِلِ الَّذِي أَنْتَ بِهِ، نَظَرْتُ فِي أَمْرِي، وَعَرَفْتُ أَنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ، وَزَائِلَةٌ وَأَنَّ لِي فِيهَا رِزْقًا سَيَأْتِينِي، فَقُلْتُ أَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِآخِرَتِي. قَالَ:فَصَمَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ لِي: "إِنِّي فَاعِلٌ فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ "[٤١].

منهج الرسول صلى الله عليه وسلم
مع أزواجه رضيَّ الله عنهنَّ

استخدم المرجفون منذ مبعث الشبهات حول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من تعدده للزوجات مدخلاً يلونونه بكل لون بحسب ما يودون الطعن في شخصه الكريم
من المطاعن: فتارةً يكون التعدد مُدخلاً للشهوانية، أو النفعية، حتى إذا حدثناهم عن زهده صلى الله عليه وسلم وقف التعدد تكأة يتكأون عليها بمنافاة ذلك المسلك مع انتهاج مسلك الزهد، وقد غاب عنهم أن زيجاته صلى الله عليه وسلم كانت غارقة في النفع والأهمية، عَلِمَها الرسول صلى الله عليه وسلم، وطوت جوانحه سرها، وغايتها، ومردودها على المسلمين، لما فى زواجه صلى الله عليه وسلم من حكمة: إما تعليمية أو تشريعية أو سياسية أو اجتماعية.. ستنتهي حتمًا بانتهاء زمانها والمراد منها.. إلا الحكمة التعليمية فبقاؤها مرهون باتصال الزمان، وامتداد المسلمين رقعةً وتعدادًا، كما عرف صلى الله عليه وسلم أن عمره القصير على سطح كوكبنا لن يفي وحده بتعليم المسلمين كل أمور دينهم من التفاصيل الصغيرة التي سوف يحتاجها الناس دومًا، فالأحكام تتناهى وحاجات الناس لا تتناهى، ولهذا فقد ترك لهم أزواجه رضوان الله عليهن وأصحابه رضيَّ الله عنهم ينقلنَّ وينقلون عنه صلى الله عليه وسلم، ذلك الرعيل الأول الذي عاصر الوحي وهو ينزل من السماء، والرسول المعلم والزوج والقائد يبلغ ويحدِّث في مسجده، وغزواته، وفتاواه، وأقضيته، ومعاهداته، وفي بيوته، وبين أزواجه؛ فتبليغه وحي، وكلامه سُنة، وفعله قدوة صلى الله عليه وسلم، ورضيَّ الله عن أمهاتنا الطاهرات، فالسيرة النبوية هي جزءٌ مهمٌّ موثقٌ من تاريخ الإنسانية وتراثها، وقد كان صلى الله عليه وسلم مستشرفًا آفاق المستَقبل بما أوحى إليه ربه من غيب المستقبل له ولأمته من بعده، بل مُرسل للإنسانية كلها وهو هاديها ومعلمها وخاتم الرسل ولن يرسل الله من سيعلم البشرية من بعده [٤٢].

ولهذا فقد عكف الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أزواجه، أن ما عند الله خير وأبقى، حتى عانق الزهد في الدنيا وعلائقها ومباهجها الزائلة، ذلك الكرم في إنفاق الذهب والفضة، فساروا على نهجه صلى الله عليه وسلم في حياته مثلما طبقوه بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، وكانت آلياته صلى الله عليه وسلم في حثهم على تبني هذا الفهم بالقلب والاقناع، نفس ما طبقه مع الصحابة رضوان الله عليهم من الإتباع والاقتداء والطاعة، فلم يثبت أن الإزداوجية عرفت طريقها لشخص النبي صلى الله عليه وسلم لا في حياته على وجه العموم، ولا في حياته بصفةٍ خاصة، فكان كما هو صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه نبيًا وبعد تكليفه بأعباء الرسالة، ولذا فكان ما يكون عليه من زهد وتقلل من الدنيا مع أصحابه هو نفس صنيعه وطبعه ومسلكه ومنهجه بين أهله تمامًا بتمام.

كان وجود الرسول صلى الله عليه وسلم في بيوته بين أزواجه الطاهرات هو المثال العملى التطبيقي؛ إذ كانت عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته داخل جدران بيته مع أسرته كما كانت خارج بيته، لقد صدق فولتير [٤٣] حين قال في كلمته المشهورة: (إن الرجل لايكون عظيمًا في داخل بيته، ولابطلاً في أسرته ذلك لأن المعايشين له يرقبونه عن قرب، ويعلمون تصرفاته الظاهرة، ويسمعون ويتسمعون لدواخله الباطنة، فلا يشهدون له لا بالإعجاز ولا البطولة)، إلا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبي القرآن، كان في حياته الخاصة المثال الأول، والأزكى، والأرقى ، لكل ما أرضى به الله ووجه إليه العباد..أمر الله بفرائض، وحث على نوافل، وأحل حلالاً، وحرم حرامًا، وضع حدودًا، وساق عبرًا..إنك واجد ذلك كله (نظريًا) في كتاب الله، ولكنك واجد التنفيذ (العملي) له ظاهرًا وباطنًا فى سيرة محمد نبى القرآن [٤٤].

من الصعب أن تجد حجرة أو بيتًا من بيوت نساءه مختلفًا في أثاثه عن الآخر: روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: إِنَّمَا كَانَ فِرَاشُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الَّذِي يَنَامُ عَلَيْهِ أَدَمًا حَشْوُهُ لِيفٌ.وعنها رضي الله عنها قالت: كانت وسادة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ينام عليها بالليل من أدم حشوها ليف[٤٥]. وعن حفصة رضي الله عنها قالت: كان فراش رسول الله صلى الله عليه

وسلم في بيته مسحًا نثنيه ثنيتين، فينام عليه، فثنيناه له ليلة بأربع، فلما أصبح قال: "ما فرشتموا لي الليلة؟" فذكرنا ذلك له، فقال: ردوه بحاله فإن وطأته منعتني الليلة صلاتي.
قال ابن القيم في زاد المعاد يصف فراشه صلى الله عليه وسلم : (كان ينام على الفراش تارة، وعلى النطع تارة، وعلى الحصير تارة، وعلى الأرض تارة، وعلى السرير تارة بين رماله، وتارة على كساء أسود).

عَنْ عائشة، قَالَتْ: دَخَلَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَرَأَتْ فِرَاشَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبَاءَةً مُثَنَّاةً، فَانْطَلَقَتْ، فَبَعَثَتْ إِلَيَّ بِفِرَاشٍ حَشْوُهُ الصُّوفُ، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: "مَا هَذَا؟" فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فُلانَةُ الأَنْصَارِيَّةُ دَخَلَتْ عَلَيَّ فَرَأَتْ فِرَاشَكَ، فَانْطَلَقَتْ، فَبَعَثَتْ إِلَيَّ بِهَذَا، قَالَ: "رُدِّيهِ" فَلَمْ أَرُدَّهُ، وَأَعْجَبَنِي أَنْ يَكُونَ فِي بَيْتِي، حَتَّى قَالَ ذَلِكَ مِرَارًا، قَالَ: "وَاللَّهِ يَا عَائِشَةُ لَوْ شِئْتُ لأَجْرَى اللَّهُ مَعِي جِبَالَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ"، فَرَدَدْتُهُ إِلَيْهَا[٤٦].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يمتلئ جوف النبي شبعًا قط، ولم يبث شكوى إلى أحد، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى، وإن كان ليظل جائعا يلتوي طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض، وثمارها، ورغد عيشها، ولقد كنت أبكي له رحمة مما أرى به، وأمسح بيدي على بطنه مما به من الجوع، وأقول: نفسي لك الفداء، لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك! فيقول: يا عائشة، ما لي، وللدنيا، إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضوا على حالهم، فقدموا على ربهم، فأكرم مآبهم، وأجزل ثوابهم، فأجدني أستحيي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غدا دونهم، وما من شيء هو أحب إلي من اللحوق بإخواني، وأخلائي. قالت: فما أقام بعد إلا شهرا حتى توفي[٤٧].

ومع هذا فلم يتكلف الرسول صلى الله عليه وسلم الزهد، ولم يجعله حائلاً عن التوسط في أموره كلها، ولقد كان هديه في الطعام أحسن هدي، فكان لا يرد موجودًا، ولا يتكلف مفقودًا، فما قرب إليه شيء من الطيبات إلا أكله، إلا أن تعافه نفسه فيتركه من غير تحريم، وما عاب طعامًا قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه. وقد أكل الحلوى والعسل، وكان يحبهما، وأكل لحم الجزور، والضأن، والدجاج، ولحم الحبارى، ولحم حمار الوحش، والأرنب، وطعام

البحر، وأكل الشواء، وأكل الرطب والتمر، وشرب اللبن خالصًا ومشوبًا، والسويق، والعسل بالماء، وشرب نقيع التمر[٤٨].

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: " أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا بَقِيَ مِنْهَا؟ قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا، قَالَ: بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا[٤٩].

عن أم سلمة قالت: "دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساهم الوجه، قالت: فحسبت أن ذلك من وجع، فقلت: يا نبي الله، مالك ساهم الوجه؟، قال: من أجل الدنانير السبعة التي أتتنا أمس، أمسينا وهيَّ خصم الفراش" [٥٠].

هكذا علم النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه الطاهرات أن الدنيا ليست دار مقام بل هيَّ قنطرة لايصح البقاء فيها ولا البناء عليها، وأنها ليست غاية المؤمن الحق، بل الآخرة أولى بأن تكون همهن وهم كل مسلم، فقال صلى الله عليه وسلم: "من كانت الآخرة همه جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه شتت الله شمله وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له، السعيد من اختار باقية يدوم نعيمها على بالية لا ينفد عذابها)"[٥١].

أما الدرس النبوي الأعظم الذي تلقته أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في الزهد والقناعة فكان حين سألنه زيادة النفقة ..وهذا المنهج الصارم في المعيشة تقاضى نساءه أن يتحملن شدَّة ما كنَّ يعرفنها من قبلُ، لقد جئن إليه من بيوتات كبيرة.وأكثرهن اعتادت في صدر حياتها الزاد الطيب والنعمة الدافقة، إما مع آبائهن، وإما مع رجالهن السابقين فلا عجب إذا تململن من هذه الحياة الجديدة، وطلبن الرغد والنعومة، واجتمعن ـ على ما بينهن من خلاف ـ ليسألن الرسول مزيدًا من النفقة!..إنهن في بيت أعظم رجل في العرب، فيجب أن تتكافأ معيشتهن مع مكانتهن، وقد تزعَّم هذه المطالب عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وتبعهن الباقيات! وحزن رسول الله لهذه المظاهرة! إنه المسلم الأول على ظهر الأرض وأبصار المؤمنين والمؤمنات ترنو إليه من كل ناحية، وهو بصدد بناء أمة تشق طريقها وسط ألوف مؤلفة من الخصوم المتربصين فإذا لم يعش بيته عيشة المجاهد

المحصور، فكيف يواصل الكفاح ويكلف الرجال والنساء من أمته أن يذهلوا عن كل شيء إلا السير بدينهم حتى بلغ مأمنه؟[٥٢].

أما الأسباب التي دفعته صلى الله عليه وسلم لرفض مطالبهن وتخييرهن بين السراح والبقاء، أن شعاره الدائم في أهل بيته وعياله وأقرب الناس إليه، تقديمهم في المخاوف والمغارم، وتأخيرهم في الرخاء والمغانم... ويؤثر عليهم غيرهم خلافًا للملوك والقادة والزعماء[٥٣]. كما أنَّه صلى الله عليه وسلم يجعل نفسه في الزواج المَثَلَ الشعبيَّ الأكمل، كما هو دأبه في كل صفاته الشريفة؛ فهو يريد أن تكون زوجاته جميعًا كنساء فقراء المسلمين؛ ليكون منهنَّ المَثَل الأعلى للمرأة المؤمنة العاملة الشريفة، التي تبرع البراعة كلَّها في الصبر والمجاهدة، والإخلاص والعفَّة، والصَّراحة والقناعة، وتنتهي القصة ـ كما يقول الرافعي ـ في عبارة القرآن الكريم بتسمية زوجاته صلى الله عليه وسلم: "أمهاتِ المؤمنين" بعد أنِ اخْتَرْنَ اللهَ ورسوله والدار الآخرة؛ وعلماء التفسير يقولون: إن الله تعالى كافأهنَّ بهذه التسمية؛ وليس ذلك بشيءٍ، ولا فيه كبيرُ معنًى، وإنما تُشعِر هذه التسميةُ بمعنًى دقيق، هو آيةٌ من آيات الإعجاز؛ فإنَّ الزوجةَ الكاملة لا تَكْمُل في الحياة ولا تَكْمُل الحياة بها إلا إذا كان وصفها مع رجلها كوصف الأم؛ ترى ابنها بالقلب ومعانيه، لا بالغريزة وحظوظها؛ فكلُّ حياة حينئذ ممكنةُ السعادةِ لهذه الزوجة، وكلُّ شقاءٍ محتملٌ بصبرٍ، وكلُّ جهادٍ فيه لذَّتهُ الطبيعية؛ إذ يقوم البيت على الحُبِّ الذي هو الحُبُّ الخالص لا المنفعة، وتكون زينة الحياة وجودَ الحيِّ نفسه لا وجودُ المادَّة، وتُبْنَى النفس على الوفاء الطبيعي كوفاء الأم، وذلك خُلُقٌ لا يَعْسُرُ عليه في سبيل حقيقته أن يتغلَّب على الدنيا وزينتها[٥٤].

وكأن هذا الدرس النبوي ليس مقصورًا على البيت النبوي وأمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، بل يستهدف رجال الأمة الإسلامية في سائر عصورها بأن يثبتوا أمام تلك الهوجات والهبات التي تثيرها النساء بشأن التوسعة وطلب الرغادة في العيش فوق الطاقة، مما قد تشكل فتنة للرجل حين لا يكون مالكًا ولا تحت يده ما تطلب فيضطر إما للإستدانة أو الرشوة أو السرقة، ودرسًا لنساء المؤمنين أن يرضخن للحق ويطلبن الآخرة تأسيًا بأمهاتهن، ليكون الدواء الناجع للخروج من حب الدنيا بالتقلل منها، والزهد عما في أيدي الناس، والنظر لمن هن أدنى منهنَّ فيحمدن الله تعالى على ما هنَّ عليه.

تأثر أمهات المؤمنين بزهد الرسول صلى الله عليه وسلم:

عانق الزهد فى الدنيا وعلائقها ومباهجها الزائلة، ذلك الكرم فى إنفاق الذهب والفضة حبًا وكرامة ابتغاء وجه الله الأعلى كما علم الرسول صلى الله عليه وسلم أزواجه المؤمنات الطاهرات، فكانت حياتهن بعده صلى الله عليه وسلم استكمالاً لحياتهنَّ معه صلى الله عليه وسلم، تبدى ذلك في تصرفاتهن التي دونتها السنة الشريفة:
عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ بَعَثَ إِلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِمِائَةِ أَلْفٍ، فَقَسَمَتْهَا حَتَّى لَمْ تَتْرُكْ مِنْهَا شَيْئًا، فَقَالَتْ بَرِيرَةُ: أَنْتِ صَائِمَةٌ، فَهَلَّا ابْتَعْتِ لَنَا بِدِرْهَمٍ لَحْمًا؟، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لَوْ أَنِّي ذُكِّرْتُ لَفَعَلْتُ[٥٥].

و ما حدثت به برزة بنت رافع فقالت: لما خرج العطاء، أرسل عمر إلى زينب بنت جحش بالذي لها، فلما أدخل إليها قالت : غفر الله لعمر بن الخطاب، غيري من أخواتي كانت أقوى على قسم هذا مني، قالوا: هذا كله لك، قالت: سبحان الله واستترت منه بثوب ثم قالت: صبوه واطرحوا عليه ثوبا، ثم قالت لي: ادخلي يديك واقبضي منه قبضة فاذهبي بها إلى بني فلان وبني فلان من ذوي رحمها وأيتام لها، فقسمته حتى بقيت منه بقية تحت الثوب فقالت برزة لها: غفر الله لك يا أم المؤمنين والله لقد كان لنا في هذا المال حق، قالت زينب: فلكم ما تحت الثوب فوجدنا تحته خمسمائة وثمانين درهما،

ثم رفعت يدها إلى السماء فقالت: اللهم لا يدركني عطاء لعمر بعد عامي هذا ".

قال ابن سعد:"ما تركت زينب بنت جحش درهما ولا دينارًا، وكانت تتصدق بكل ما قدرت عليه، وكانت مأوى المساكين".

ويحفظ التاريخ أن السيدة صفية رضي الله عنها باعت الدار التي كانت تعيش فيها وتصدقت بها.

منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في تربية ابنته "فاطمة" رضيَّ الله عنها

امتزج الحنو بالحزم في شخص الأب المُربي، والرسول المعلم صلى الله عليه وسلم، في نسقٍ إنساني عبقري لا تكاد الدنيا تشهد له مثيلاً، ويبقى مثالاً أبديًا أمام البشريةِ كلها على اختلاف أجناسها وما تدين به لله تعالى ولغيره؛ إذ قلما صادفت الإنسانية في عهدها الطويل تاريخًا مدمجًا لعلاقة أب بابنته بهذه الكيفية، ورغم أنها البقية الباقية من أخوتها، بل كانت أحب أهلها إلي أبيها وأقربهم من قلبه الودود وكان صلى الله عليه وسلم يشم فيها عبير ذكريات عزيزة وغالية. ذكريات السنوات الجليلة التي قضاها في صحبة أمها خديجة .. كما كان يتهلل غبطةً ورضًا، وهو يري فيها أم ذريته المباركة وسبطه العظيم .. إنها '' فاطمة ''.. بورك الاسم ، وبوركت صاحبته [٥٦].

رغم تلك الحميمية الخالصة يربي الرسول صلى الله عليه وسلم فاطمة على التقلل من الإقبال على الدنيا، وهيَّ التي ولدت في أحضان نعيم جزل كانت تزخر به دار أمها "خديجة" ذات المجد الوارف والثراء المفيض، ترضى بأن يكون أثاث بيتها عند زواجها: أعواد من جريد صنع منها سرير واطيء، ووسادة حشوها ليفٍ، وسقاءين للماء، ورحاءين للطحن، وقارورتي طيب، ومنخلاً، ومنشفةً، وقدحًا، وغطاءٍ من قطيفة لها وزوجها علي إذا غطت رأسيهما تكشفت أقدامهما، وإذا غطيًّا أقدامهما تكشّفت رأسيهما، وفراشهما جلد كبش ينامان عليه بالليل ويجعلانه نهارًا لعلف البعير عليه، ولم يكن لهما خادم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما تزوّجَ عليٌّ فاطمة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أعطها شيئًا"، قال: ما عندي ، قال: "أين درعك الحُطَمِيّة؟" [٥٧].

جاءت في روايات يصحح بعضها بعضًا أن قيمة تلك الدرع لما بيعت ثمانون وأربعمائة درهم، أو أربعمائة درهم. فقد صحَّ عن التابعي الثقة عِلْباء بن أحمر: أن قيمة الدرع الذي أصدقَ عليٌّ رضي الله عنه فاطمة رضي الله عنها بلغ أربعمائةٍ وثمانين، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "اجعل ثُلُثيه في الطيب، وثلثًا في المتاع"[٥٨].

يؤيد هذا ما صحّ من خطبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قال: (ألا لا تُغالوا بصُدُقِ النساء؛ فإنها لو كانت مكرمةً في الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأةً من نسائه، ولا أُصدقت امرأةٌ من بناته أكثر من ثنتي عشرة أوقية)[٥٩]. والأوقية : أربعون درهمًا، فتكون الاثنتا عشرة أوقية أربعمائة وثمانين درهما.

لا يتوقف الأب المعلم عن تربية ابنته الأثيرة الوحيدة والأخذ بيديها نحو مضارب الآخرة باعتبارها الباقية، وحثها على التقلل من الدنيا الفانية، وفي موقفٍ لا يستطيع أي أب مهما كان حزمه إلا أن يتراجع إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فعلى الرغم من كل الوشائج التي تربطه بابنته وكفى بالبنوة والأبوة علاقة تربطه لا بفاطمة وحدها وإنما أيضًا بابن عمه وربيبه وزوج ابنته، وعلمه صلى الله عليه وسلم بما تعانيه ابنته من الخدمة، وطلبها أن يرسل لها خادمًا من السبي يعاونها، فلا يشفق عليها ولا يرق لحالها وحال زوجها الذي تضامن معها فيما طلبته، فيفاجئهما الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفض القاطع: "وَاللَّهِ لَا أُعْطِيكُمَا وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَطْوَى بُطُونُهُمْ، لَا أَجِدُ مَا أُنْفِقُ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنِّي أَبِيعُهُمْ وَأُنْفِقُ عَلَيْهِمْ أَثْمَانَهُمْ"[٦٠].

سمع الزوجان ووعيا ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم فقفلا راجعيْن لدارهما دونما اعتراض أو جدال، فتسلل الحنو الفطري لقلب الوالد الذي عز عليه أن يبيتا ليلتهما وقد تسلل الحزن إلى قلبيهما.... فَأَتَاهُمَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ دَخَلَا فِي قَطِيفَتِهِمَا، إِذَا غَطَّتْ رُءُوسَهُمَا تَكَشَّفَتْ أَقْدَامُهُمَا، وَإِذَا غَطَّيَا أَقْدَامَهُمَا تَكَشَّفَتْ رُءُوسُهُمَا، فَثَارَا، فَقَالَ: "مَكَانَكُمَا"، ثُمَّ قَالَ: "أَلَا

أُخْبِرُكُمَا بِخَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَانِي؟"، قَالَا: بَلَى، فَقَالَ: "كَلِمَاتٌ عَلَّمَنِيهِنَّ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام، فَقَالَ: تُسَبِّحَانِ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا، وَتَحْمَدَانِ عَشْرًا، وَتُكَبِّرَانِ عَشْرًا، وَإِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا فَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ[٦١].

كان هذا درسًا نبويًا عمليًا شاملاً للأمة تتناقله وتستفيد منه، فيه الأدب والطاعة للأب والنبي صلى الله عليه وسلم، وفيه القبول والرضا بالمنحة الإلهية والهدية النبوية من التسبيح والتهليل والتكبير، وفيه درسًا قاسيًا لمن ينسون التسبيح أو من يتعالون عليه ويظنون ألا غناء من وراءه، وفيه الحزم في التربية مع أحب الناس إليه، مخافة الفتنة والوقوع في المعاصي لأن الأولاد ابتلاء ومحنة يختبر بها الرب تعالى عباده بهم، وفيه الحنو وتبيان الأسباب وما يخفى على الأولاد إذا رفض الأب ما يطلبون، وفيه إيثار مصلحة الجماعة والأمة على مصالح الحاكم أو ولي الأمر، وفيه درسًا بليغًا لكل أب أو أم أن لاينقطع مدد نقل العلم والخبرة المتراكمة لديهما، والمشورة والنصيحة المفيدة بخروج الأولاد من بيت العائلة إلى بيت الزوجية.

كان منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في تعليم السيدة فاطمة رضي الله عنها ابنته والبقية الباقية من عائلته التقلل من الدنيا الذي يتشابه بمنهجه مع الصحابة وأزواجه رضوان الله عليهم وعليهن، ويتفارق حين ينتقل من النظري إلى التطبيقي والعملي بما مارسه صلى الله عليه وسلم حين لم يعطها فقط بل وحين أخذ منها، وهو الأقسى على النفس:

أتي النبي صلى الله عليه وسلم بيت فاطمة لزوره، ثم عدل فلم يدخل عليها، فبعثتْ عليًا ليسأل عن سبب عدوله عن زيارتها،فأجابه الرسول: "إني رأيت علي بابها سترًا موشيًا"، فعاد علي إلى فاطمة فأخبرها الخبر، فقالت فاطمة: ليأمرني فيه بما شاء، فقال عليه السلام: "لترسلي به إلى فلان أهل بيت بهم حاجة، ليست لي حاجة بزخرف الدنيا"[٦٢].

وقد نزع النبي صلى الله عليه وسلم أستارًا في بيت عائشة رضي الله عنها قائلاً: "إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين"[٦٣].

قال المهلب وغيره: كرِهَ النبي صلى الله عليه وسلم لابنته ما كَرِهَ لنفسه من تعجل الطيبات في الدنيا، لا أن ستر الباب حرام.

ليست المشكلة في حرمة ستر الباب، ولكن الغاية الأهم من تربيته صلى الله عليه وسلم لابنته هو ألا تتعجل الطيبات في الدنيا، فليس هذا من شيمة المؤمنين الأتقياء فضلاً عن بنات البيت النبوي الطاهر من آل البيت رضوان الله عليهم، وهو عين ما كان يفعله في بيته مع أزواجه.

توجه الرسول صلى الله عليه وسلم لزيارة فاطمة ثم عاد كذلك دون أن يدخل عليها، فأرسلت تسأله عن سر ذلك أيضًا، فأجاب: "أني وجدت في يديها سوارين من فضة"، فبلغها ذلك فتصدقت بهما وأرسلتهما إليه مع بلال، فقال صلى الله عليه وسلم لبلال: "اذهب فبعهما وأدفعهما إلى أهل الصُفَّة" [٦٤].

جاء بالإحياء [٦٥] استنباطاً من هذا الموقف الذى جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنته فاطمة رضى الله عنها: قال أبو سليمان: (لا ينبغي أن يرهق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه، فإن أجابوا وإلا تركهم وفعل بنفسه ما شاء)، معناه: أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه كل ذلك في عياله، نعم .لاينبغي أن يجيبهم أيضًا فيما يخرج عن حد الإعتدال، وليتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين، لأن ذلك من الزينة لا من الحاجة، فإذًا ما يضطر الإنسان إليه من جاهٍ ومالٍ ليس بمحذور، بل الزائد على الحاجة سمٌ قاتل، والمقتصر على الضرورة دواء نافع.

إن العلاقة الراقية بين الرسول صلى عليه وسلم وابنته رضىَ الله عنها وما اكتنف مسيرتهما الحياتية معًا [٦٦] لم تكن لتنبيء بردود أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم التي تبدو قاسية بعض الشيء، ولكنها تبقى أنموذجًا يُحْتَذى ويَتحدى أولئك الآباء الذين ينهجون مسلك التبرير في الإفراط في التدليل بحجة تعويض الأبناء عما فقدوه أو حُرِمُوه، وهو غالبًا ما ينتهي

عكسيًا على حياتهم البعيدة عن الإنضباط والإنحراف نحو الجشع والمزيد من متع ومتاع الحياة، وبعد عن جادة الإستقامة والدين بل العرف الصحيح، وإذا وُجِهوُا بمستوى أدنى للمعيشة يفقدون صوابهم واتزانهم، لأنه لم يكن هناك من علمهم التقلل من الدنيا، والإقبال على الآخرة الباقية، وهنا يكمن ذلك الإصرار الحازم والجاد من رسول الله صلى الله عليه وسلم المرسل رحمةً للعالمين، فكيف لا يكون رحمةً على قرة عينه وفلذة كبده فاطمة أم أبيها؟!..

كانت رحمته صلى الله عليه وسلم في أنه جنبها العاجلة طمعًا في العاجلة، وهيَّ التي تربت بين أكنافه وتعرفت منهاجه ومسيرته مع الزهد وخلقه فى المال فوجدته قد أوتىَ خزائن الأرض، ومفاتيح البلاد، وأُحِلَت له الغنائم، ولم تحل لنبي قبله، وفتح عليه في حياته صلى الله عليه وسلم بلاد الحجاز واليمن، وجميع جزيرة العرب، وما دانى ذلك من الشام والعراق، وجلبت إليه من أخماسها وجزيتها صدقاتها ما لايُجبى للملوك إلا بعضه، وهادته جماعة من ملوك الأقاليم، فما استأثر بشيء منه، ولا أمسك منه درهمًا؛ بل صرفه مصارفه، وأغنى به غيره، وقوى به المسلمين [٦٧].

تأثر السيدة فاطمة بزهد أبيها صلى الله عليه وسلم:

لقد كان في استجابة الزهراء رضي الله عنها لكل أوامر والدها صلى الله عليه وسلم في الاستغناء عن خادم هيَّ في أشد الحاجة إليه مقابل عدد من التسبيحات الليلية قبيل النوم، وبيعها ستر موشي وأسورتيها والتصدق بهم عن رضا وطيب خاطر، لدلالة جلية على مدى تأثرها والتزامها بالنهج النبوي في الزهد الذي رُبيْت عليه، ولمسته عيانًا وحقيقة وواقع من أبيها صلى الله عليه وسلم.

أن الدلالة الأكبر والأعلى في مدى زهد السيدة فاطمة رضيَ الله عنها فيما لا يبلغ شأوها فيه أحد من قبل ومن بعد، ذلك حين أسرَّ الرسول صلى الله عليه وسلم إليها خبر انتقاله إلى الرفيق الأعلى صراحةً ومشافهةً دون غيرها، ثم أَسرَّ إليها ثانية بعد حُزنها على سماع خبر فِراقه، بأنها ستكون أول أهله لحوقًا به، فَسُرَّتْ بذلك؛ حيث قالت: فلمَّا رأى جزَعي، سارَّني الثانية، فقال: "يا فاطمة، أما ترَضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو

سيدة نساء هذه الأمة؟"[٦٨]، وفي رواية:"فأخبَرني أني أوَّل مَن يتبعه من أهله"، فضحِكت[٦٩].

ولئن تَعجَّبنا كيف أن الابنة لم يُروِّعها النبأ، بل سُرَّت به، فيما يمكن أن نُسمي علاقة البنوة بالأبوَّة المتشابكة بين الزهراء وأبيها، بأنها معجزة تُضاف لسيد الخَلق حين نجَح في أن يُهذِّب ويؤدِّب ابنته إلى هذا الحد الفائق من الطاعة، حين لم تَرُد عليه مقالته، بل وجعَلت نَعيها بِشارة، فلم تغتمَّ ولكن سُرَّت؛ ليس زهدًا في الحياة عن ملالة وتضجر ولكن فرَحًا بالمرافقة والمجاورة لأبيها في رحلته الأخيرة عن الدنيا، التي اعتبرتها هدية نبوية أبوية كريمة فازت بها دون الورى، والتي تستحقها عن جدارة؛ فعلاقتها بأبيها علاقة خاصة، ومن حق المتعجِّب أن يتعجَّب؛ لأنه يَجهلها، وإذا علِمها دون أن يتعمَّقها ويُعايشها، ويتعايش معها فما أحسَّها ولا علِمها، ما دام لم يُعاين وقائعها وأحداثها منذ ولادة فاطمة، ومعاصرتها أحداث الدعوة، وفِراق الأحبَّة من الأهل، ثم هجرة أبيها إلى المدينة، وبقاءها في مكة حتى استدعاها إليه وأُختها معها.

الزهد منهاج للحياة.. الإقتصاد: نموذجًا

ثبت بعد قراءة كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم أن الزهد يقف وحده مدرسة ومنهاجًا عريضًا وعميقًا على المستويين المعنوي والمادي، فحيث كون الزهد الحق ينبع من القلب واقتنع به القلب انقادت له الجوارح باعتبارها المصب والوعاء والنتيجة.

وتدلُّنا سيرةُ الرسول صلى الله عليه وسلم على عظيمِ عفوِه وتسامحه وزهدِه في الانتقام، سواء في السِّلم أو الحرب، وكانتْ هذه الأخلاق النبوية العظيمة روحًا انسابتْ في قلوب أتباعِه ونفوسهم، في حربِهم وسِلْمهم على السواء، فمع أن الخلافاتِ أو الحروبَ مظنَّةٌ اللا إنسانية، والسلوكيات المدمِّرة اللاأخلاقية، إلا أن سمو الإسلام المتجسِّد في سلوكيات الرسولِ وصحابتِه قد قدَّم للبشرية نموذجًا جديدًا، يفتح أمام الإنسانية آفاقًا رائعةً للتفاهم الإنساني، والسموِّ الأخلاقي![٧٠].

وهذا مردود معنوي من أخلاق الزهد تسلل وتسرب إلى القيم الإجمالية الإيجابية التي يتحلى بها المسلم، وأيضًا القيم التي يحاول أن يتحلى بها، أو تلك التي يحاول أن يصل إلى ذُراها وأشرافها متمثلاً شخصية النبي صلى الله عليه وسلم كي لا يفوته شرف الصحبة والمعية في الفردوس الأعلى، وهو أغلى وأعظم ما يحرص عليه السواد الأعظم من المسلمين، ليس دخول الجنة وحسب بل مرافقته صلى الله عليه وسلم فإلى هذا يسعون وبهذا يتمنون.

انتقل الزهد كقيمة إلى كتب الطب وأولها تلك الكتب التي استخلصت من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تحت اسم "الطب النبوي"، وقد أورد البخاري ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن داخل كتبهم ومؤلفاتهم كتبًا عن الطب النبوي، بل ألف العلماء كتبًا قائمة بذاتها تحت هذا العنوان، وهذه

الأحاديث الطبية التي ثبت صحتها لاينبغي الشك فيها أو الطعن عليها، وقد ورد في حجيتها والأخذ بها أقوال، أهمها ما ترجح فيه النظر من أهل الإختصاص في الطب والعلاج[٧١].

يقول ابن القيم[٧٢]: (ومن تأمل هدي النبي صلى الله عليه سلم وجده أفضل هدي يمكن حفظ الصحة به، فإن حفظها موقوف على حسن تدبير المطعم والمشرب والملبس والمسكن والهواء والنوم واليقظة والحركة والسكون والمنكح والاستفراغ والاحتباس، فإذا حصلت هذه على الوجه المعتدل الموافق الملائم للبدن والبلد والسن والعادة، كان أقرب إلى دوام الصحة أو غلبتها إلى انقضاء الأجل).

ما يهمنا في مقامنا هذا الأحاديث التي دلت على التقلل من الطعام، لأنها التي ستنتقل معنا شاهدة إلى أيامنا هذه، ومنها:

حَدَّثَنَا أَبُو الْمُغِيرَةِ قَالَ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ سُلَيْمٍ الْكِنَانِيُّ قَالَ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ جَابِرٍ الطَّائِيُّ قَالَ سَمِعْتُ الْمِقْدَامَ بْنَ مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثُ طَعَامٍ وَثُلُثُ شَرَابٍ وَثُلُثٌ لِنَفْسِهِ"[٧٣].

قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم: (هذا الحديث أصلٌ جامع لأصول الطب كلها). وقد روي أن ابن ماسَوَيه الطبيب لما قرأ هذا الحديث في كتاب أبي خيثمة قال: (لو استعمل الناس هذه الكلمات؛ سلموا من الأمراض والأسقام، ولتعطلت المارستانات، ودكاكين الصيادلة)، وقال ابن القيم[٧٤] تعليقًا على هذا الحديث: (ومراتبُ الغذاء ثلاثةٌ أحدها: مرتبة الحاجة، والثانية: مرتبة الكفاية، والثالثة: مرتبة الفضلة، فأخبر النبي صلَّى الله عليه وسلَّم أنه يكفيه لقيمات يقمن صلبه، فلا تسقط قوتُه، ولا تضعف معها، فإن تجاوزها فيأكل في ثلث بطنه، ويدع الثلث الآخر للماء، والثالث للنفس، وهذا من أنفع ما للبدن والقلب).

لما أهمل المسلم المعاصر بصفة خاصة قيمة التقلل من الطعام، والإنسان المعاصر بصفة عامة، كانت النتيجة أن أصابته الأمراض التي نتجت عن

التخمة والشره والنهم، مثل: مرض السمنة، ومرض السكر، ومرض التهاب المفاصل، ومرض النقرس "داء الملوك"، وجلطة المخ والأورام، كان السبيل الوحيد للتخلص من هذه الأمراض بتوصية الأطباء لمرضاهم بالتخلص من وزنهم الزائد بالتقلل من الطعام.

كان الزهد سببًا فصار نتيجة، أي نتيجة التخلي عنه صارت السمنة ومشتقاتها فكانت النتيجة الحتمية التزام "الزهد" بأمر الطبيب المعالج، ليكون الزهد أفضل ريجيم يتبعه المريض إذا ما كان حريصًا على النجاة سريعًا من براثن ما أوقع نفسه فيه، وهكذا حل الزهد سيدًا لا ضيفًا في كتب الأطباء وعلاجاتهم.

وقد حل الزهد في حياة المسلم بالتقلل من الطعام نظامًا إلهيًا إجباريًا سنويًا، وركنًا هامًا من أركان الإسلام تمثل في صوم شهر رمضان، إذا ما أحسن المسلم الالتزام بعدم الإفراط في تناول الطعام بنظام التعويض في إفطاره عن الساعات التي صامها، والاقتداء بنظام الرسول صلى الله عليه وسلم في إفطاره الرمضاني، قال ابن القيم[٧٥]: (وَفِي فِطْرِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِنْ الصّوْمِ عَلَيْهِ على الرُّطَب أَوْ عَلَى التّمْرِ أَوْ الْمَاءِ تَدْبِيرٌ لَطِيفٌ جِدّا، فَإِنّ الصّوْمَ يُخَلّي الْمَعِدَةَ مِنْ الْغِذَاءِ، فَلا تَجِدُ الْكَبِدُ فِيهَا مَا تَجْذِبُهُ وَتُرْسِلُهُ إلَى الْقُوَى وَالأَعْضَاءِ، وَالْحُلْوُ أَسْرَعُ شَيْءٍ وُصُولا إلَى الْكَبِدِ، وَأَحَبّهُ إلَيْهَا، وَلا سِيّمَا إنْ كَانَ رُطَبًا، فَيَشْتَدّ قَبُولُهَا لَهُ، فَتَنْتَفِعُ بِهِ هِيَ وَالْقُوَى، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَالتّمْرُ لِحَلاوَتِهِ وَتَغْذِيَتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَحُسُوَاتُ الْمَاءِ تُطْفِئُ لَهِيبَ الْمَعِدَةِ وَحَرَارَةَ الصّوْمِ، فَتَتَنَبّهُ بَعْدَهُ لِلطّعَامِ وَتَأْخُذُهُ بِشَهْوَةٍ).

صار الزهد منهاجًا للحياة اقتداءًا واتباعًا لمنهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المؤمنين بالله ورسوله، أو ممن يسيرون على نصائح الأطباء ورفضوا الزهد تدينًا، ورضوه وصفات وبرامج قاسية للوصول إلى الوزن المثالي.

ومثلما حل الزهد في كتب الطب النبوي أحاديثًا للإيمان بها، والسير على نهجها، وعلمًا يدرس في المعامل ومؤلفات الطب المعاصر، حل أيضًا معادلاتٍ ونظريات ورسومات في كتب الإقتصاديين يدرسونه ويحللونه، فإذا كان يُنادى به من فوق المنابر بحناجر وقلوب الوعاظ والدعاة، وكان من يسمع حديثهم عنه يحيله إلى الأمور المعنوية المثالية التي لا تخضع للفحص والدرس، سيذهلون الآن وهم يجدون علماء الإقتصاد وقد انكبوا عليه ومازالوا ولم ولن ينتهوا بعد من تحويل هذه المعنويات إلى ماديات تساهم في

بناء المجتمعات، وليس فقط الزهد بل هناك مُسلمات أخرى تشكل إطار عقيدة الفرد المسلم، مثل الاستغفار الذي يدر رحمة الله، بإرسال الأمطار ويمدنا بأموال وبنين وجنات وأنهار، كما ورد في سورة نوح عليه السلام، وهذا يعطينا مفتاحًا عظيمًا لحل كثير من المشكلات الاقتصادية، حيث يترتب علي تلك الأنهار والجنات زيادة عرض المنتجات الزراعية والغذائية، ومن ثم انخفاض أسعارها السوقية، ومن ثم تزيد قدرتها التنافسية في السوق الدولي إذا كانت سلع للتصدير، فتزيد الصادرات، وبالتالي ترتفع القيمة الخارجية للعملة المحلية في مواجهة العملات الأجنبية، حتى إذ لم تكن تلك السلع تصدر، فإن انخفاض أسعارها المحلية، يساهم في انخفاض الرقم القياسي لأسعار المستهلك، ومن ثم الحد من معدل التضخم، مما يدعم القيمة الخارجية للعملة المحلية في مواجهة العملات الخارجية.

وعلي هذا فإن الاستغفار وسيلة إلي الله، سبحانه وتعالي، يمكننا من حل مشاكل اقتصادية مستعصية علي صانع السياسة الاقتصادية، فلماذا لا نجرب تلك الوسيلة إلي الله؟[٧٦].

يحاول علماء الإقتصاد صياغة نظرية لسلوك المستهلك في الإقتصاد الإسلامي[٧٧]، بإعتبار أن نظرية الإستهلاك هيَ الأساس العلمي للإقتصاد أي إقتصاد، والاستهلاك هو عبارة عن استخدام للسِّلَع والخدمات من أجْل إشباع الحاجات والرَّغبات الإنسانية، ومن هنا ارتبط قياس الزهد كعامل من عوامل ترشيد الإنفاق من خلال نسق العقيدة والقيم الإسلامية التي تحكمها الأخوة والتكافل.

إن العوامل المؤثرة لسلوك المستهلك تتباين وتختلف من مستهلك لآخر بحسب الإقتصاد الذي يحكمه، فالمستهلك في الإقتصاد الوضعي سواء الرأسمالي أو الإشتراكي تحكمه إمكاناته الماديةَ وتوقُّعاته المالية، وميولَه واتجاهاته واهتماماته، وبعضَ سِمَاته الشخصية، بينما المستهلك المسلم في ظل الإقتصاد الإسلامي، تحكمه عقيدته، وأخلاقه، وعدد من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والنفسية، التي تدعوه إلى التوسُّط والاعتدال طبقًا للتعاليم الإسلامية التي يدين بها وتحرِّم عليه بالضرورة الإسراف أو الإفراط أو التبذير في الإنفاق، كما أن مستوى الاستهلاك، أي الإشباع، يرتبط في الإسلام بتحقيق المصلحة، وهي التي تحقق للمسلم الفلاح في الدنيا والثواب في الآخرة، والتزام المسلم بالقيم والضوابط الإسلامية يترتب عليه جزاء أخروي، فضلاً عما يحققه من إشباع لمتطلبات الفرد الشرعية.

إن الاستهلاك وفقًا للمفهوم الإسلامي، هو استهلاك انتقائي من كمًا ونوعًا وتوقيتًا، فضلاً عن مراعاته لظروف المجتمع المحيط به، وعدم استنزاف ما في يده من ثروة ودخل، وذلك لكونه محكومًا بعدد من الضوابط الشرعية التي يمكن تقسيمها إلى مجموعات ثلاث: ضوابط السلوك الاستهلاكي، وضوابط علاقة السلوك الاستهلاكي بالغير، وضوابط علاقة الاستهلاك بالثروة والدخل، وقد أفاضت في تناول كل ضابط والمباديء التي يتضمنها، باعتبار أن هذه الضوابط الشرعية والاقتصادية والاجتماعية للاستهلاك، جزءًا من عقيدة المستهلك المسلم، تؤثر بلا شك في قراره وسلوكه، فلن يشتري سلعة محرمة شرعًا، أو تشبع حاجة ترفية تمثل استفزازًا لجيرانه أو أهله مثلاً، أو تحرمه من شراء سلعة ضرورية.

كما يمكن تقسيم مستويات الاستهلاك، وفقا لمفهوم الضروريات والحاجيات والتحسينيات إلى المستويات التالية:

- **مستوى الاستهلاك الذي لابد منه لحفظ النفس (الحياة)، والذي لا يمكن لأحد أن يستهلك أقل منه.**
- **مستوى الضروريات: وهو مستوى الاستهلاك اللازم للحفاظ على باقي الأركان الخمسة بعد النفس، وهى: الدين والعقل والنسل والمال.**
- **مستوى الكفاية: وهو المستوى الاستهلاكي الذي يحقق للفرد إشباع متطلبات الحياة الخمسة، دون الاحتياج ماليًا لأحد.**
- **مستوى التحسينيات: وهو المستوى الاستهلاكى الذي يحقق تمام الكفاية، وهو مستوى الغنى، والذي يعرف برغد العيش. ويكون استهلاك المسلم عند أية نقطة في هذا المستوى، وقبل الوصول إلى مستوى الإسراف استهلاكًا مباحًا، يخير فيه الفرد بين الفعل والترك، من غير مدح ولا ذم.**
- **مستوى الإسراف: وهو مستوى الاستهلاك المقابل لأقصى حد مسموح به شرعًا من التحسينيات، فإن تجاوزه دخل في حيز الإسراف المنهي عنه شرعًا.**

وجدير بالذكر أن هذه المستويات من الاستهلاك لا تكون متماثلة ومتطابقة عند جميع الأفراد، لأنها تتوقف على العديد من الاعتبارات التي تشمل التزامات الفرد العائلية، وحالته الصحية والنفسية، والتزاماته المهنية، ومدى تقواه وضبطه لنفسه.

من خلال الشكل الذي سيأتي لاحقًا ستتضح العلاقة بين مستويات الاستهلاك المذكورة والممثلة بالخطوط العموديــة (١) و(٢) و(٣) و(٤) و(٥) للمستويات الخمسة على الترتيب من مستوى حفظ الحياة إلى مستوى الإسراف، يقابل كل مستوى من مستويات استهلاك المسلم تلك درجات من الثواب الأخروي، فضلاً عن الإشباع الدنيوي. وتتحدد درجات الثواب على الاستهلاك بخمسة مستويات، هي: الثواب المعدوم، والثواب العظيم "الجنة"، الإيثار والزهد الإسلامي، الكسل والبخل، العقاب الشديد (النار):

فمستوى الثواب المعدوم يتحدد بالمسافة (هـ١ هـ٥) على المحور الأفقي، ويمثل هذا المستقيم وضع إنسان خالي الذهن، يقوم باستهلاك الحلال، دون أن يكون له نية صالحة حول هذا الاستهلاك، فلا يثاب عليه، كما أنه لا يعاقب لأنه لا يستهلك أي حرام، حتى يصل إلى النقطة (هـ٥) التي يتجاوز فيها استهلاكه حد الإسراف، فيتعرض للعقاب لخروجه على الحلال في الاستهلاك، لقول النبــي صلى الله عليه وسلم : "إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً"[٧٨]، ويحتسبها أي يطلب لها الثواب من الله فيثاب عليها، كما يثاب على الصدقة.ويكون سلوك هذا المستهلك هو سلوك المستهلك العادى.

ويتحدد مستوى الثواب العظيم "الجنة" بالخط (ث١ ث٧)، ووصول المسلم إلى هذا الثواب العظيم لا يستلزم أن يضحي باستهلاكه، وإنما أن يسلم لله وحده، أي يكون مسلمًا حقًا، يلتزم بأوامر الإسلام ونواهيه، فيعمل على أداء ما عليه من زكاة واجبة إذا ما تجاوز حد الكفاية (ك كَ)، ويلتزم بالاستهلاك المعتدل من الحلال، وفق الأولويات المشروعة، مع الإكثار من الطاعات

والصدقات.

ويتحدد مستوى الإيثار والزهد الإسلامي بالمسافة (ث٣ ث٧) وتوقف الفرد عند النقطة (ث٨) تعنى أن يكون للفرد دخلًا يسمح له بالاستهلاك عند (ث٦) ، والذي يوفر قدرًا أكبر من الاستهلاك، ولكنه يفضل خفض استهلاكه، والتوقـف عند (ث٨) أو (ث٩)، وذلك بهدف تقديم المعونة المالية للآخرين، والإنفاق في سبيل الله، أو التطوع ببعض الجهد لأداء واجبات اجتماعية، بدلاً من اكتساب المزيد من الرزق الحلال، وتحقق النقطة (ث٨) قدرًا أقل من الاستهلاك مقابل قدرًا أكبر من الثواب، أما النقطة (ث٩) فيكون عندها الثواب أكبر بكثير مقابل تخفيض الاستهلاك، وهنا نعمل على إيضاح مفهوم الزهد الإسلامي، الذي لا يعني حرمان النفس من الحلال لمجرد الحرمان، فهو ما لا يثاب عليه المسلم، ولا يقره الإسلام أصلاً، وإنما هو الحرمان الذي يثاب عليه لأنه لابد منه لتحقيق هدف نبيل. أما المنحنيات المرسومة فوق الخط (ث٣ ث٧) فتمثل الإحلال الاختياري للثواب محل الاستهلاك، عن طريق الإيثار وعن طريق الزهد الإسلامي، وهي من التصرفات الاختيارية التي يشجعها الإسلام، ويشيد بفاعليها. ويبين تحدب منحنيات السواء هذه إلى نقطة الأصل- أن العلاقة بين الثواب والتضحية بالاستهلاك ليست علاقة خطية، وإنما يرتبط الثواب بالتضحية النسبية، كما جاء في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "سبق درهم مائة ألف درهم: رجل له درهمان أخذ أحدهما فتصدق به ورجل له مال كثير فأخذ من عُرضه مائة ألف درهم فتصدق بها"[٧٩]، أي أن التضحية بوحدة من الاستهلاك تنال ثوابًا أكبر كلما كان مستوى الاستهلاك الأصلى أقل.

كما أن منحنيات السواء هذه لا تقطع المستقيم (ك كَ)، وإنما تقترب منه، حيث لا يحبذ الإسلام عادة إنفاق صدقة التطوع ممن لم يبلغ مستوى الكفاية، وتكون الاستثناءات لهذا المبدأ محصورة في التضحية من أجل مواجهة حالات طارئة فردية أو اجتماعية، مثل: حالة الحرب أو الطوارئ الاجتماعية التي تقع خارج نطاق السلوك العادي للمستهلك، والعمل على

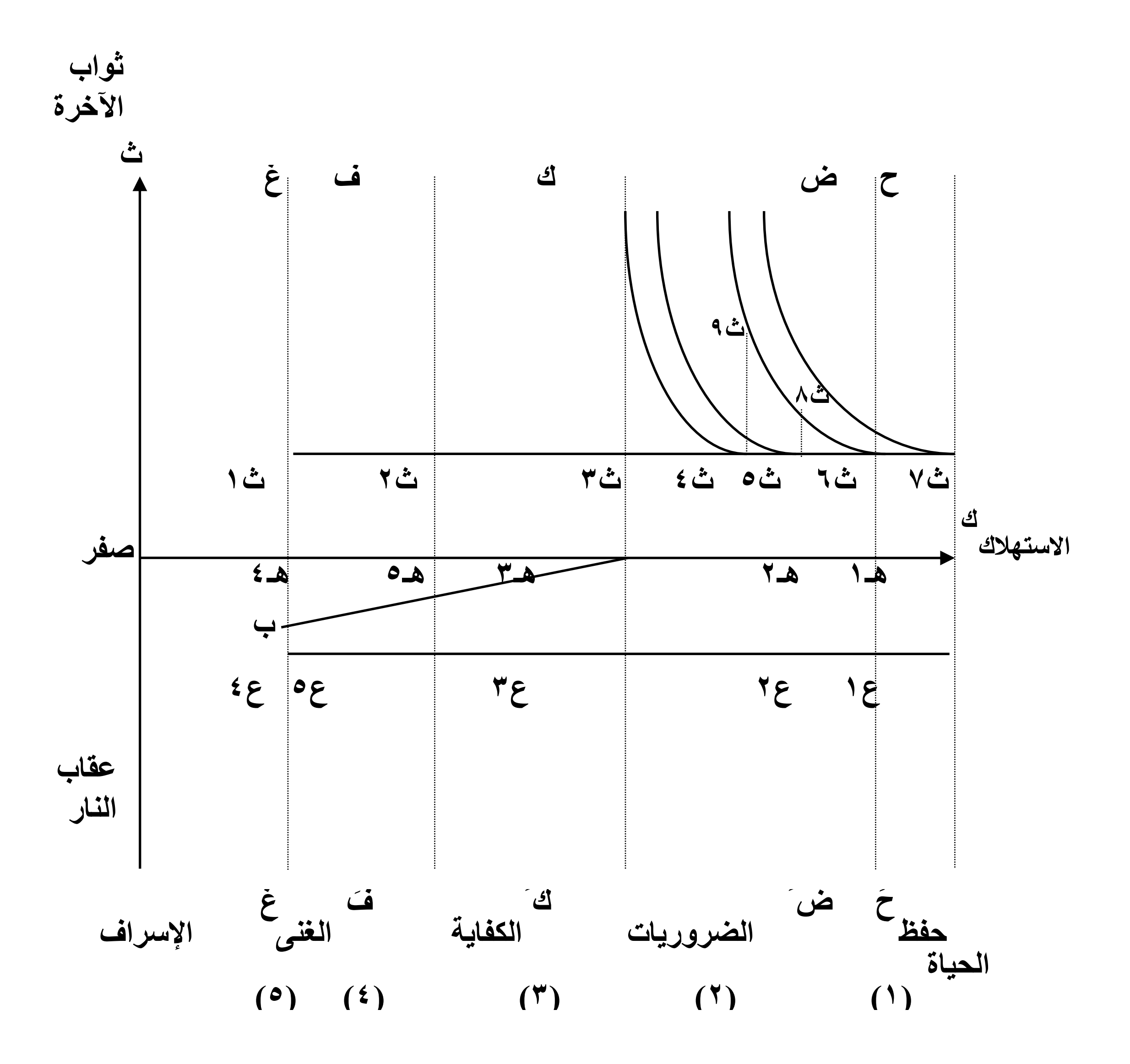
إنقاذ من يتعرض لضرر عظيم أو دائم، وهى حالات يضحي فيها الفرد ليعود طواعية إلى حد استهلاك دون مستوى الكفاية (ك كَ)، لإيمانه بأنه يعطي من هو أشد منه حاجة، بل قد تبتعد عن الخط (ك كَ)، لتقترب من مستقيم الضروريات (ض ضَ)، وفي ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً (٩)﴾[٨٠]، فالمفاضلة هنا تكون بين استهلاك دنيوي فوري وثواب أخروي من الله تعالى.وهو وضع يشير إلى ارتفاع درجة إيثار المستهلك وتفضيله للثواب الإلهي الأخروي، ويجب للمستهلك الذي يختار هذا الوضع ألا يكون ذلك على حساب التزاماته الأسرية والعائلية.

ومن الضروري في هذا المقام إيضاح مفهوم الزهد الإسلامي المتميز عن الزهد الأعجمي، إن حرمان النفس من الحلال لمجرد الحرمان لا يثاب عليه المسلم بل لا يقره الإسلام أصلا، أما الحرمان الذي يثاب عليه فهو الذي لا بد منه لتحقيق هدف نبيل، ذلك أن ترك الحلال والزهد فيه لمجرد الترك أو لمعاقبة النفس مفهوم أجنبي عن الإسلام، فالحرمان وسيلة ولا يمكن أن يكون غاية أبدا، وهذا هو فرق جوهري بين الإسلام وديانات أخرى تشجع حرمان النفس لمجرد الحرمان.

يمثل مستوى الكسل والبخل الخط (ب هـ٣)، ويكون هذا المستوى خاصًا بالفرد الذي يستهلك أقل من الكفاية، على الرغم من قدرته على تحقيق حد الكفاية، فهو إما ميسور الحال ولكنه يبخل على نفسه، وإما أنه لا يعمل على الرغم من قدرته على ذلك، فيظل فقيرًا لا يكسب ما يصل به إلى حد الكفاية. وعدم وصول الفرد إلى الكفاية فى هذه الحالة يكون إما لبخل أو كسل، وكلاهما يعاقب عليه، لأنه مقصر في أداء واجبه في السعي للكسب، مع القدرة على ذلك، أو لأنه يجعل يده مغلولة إلى عنقه، فلا يوفر لنفسه كفايتها التي يقدر عليها، والتي هي مستوى الاستهلاك الذي على المسلم السعي للوصول إليه. وتحرك الفرد من النقطة (ب) في اتجاه النقطة (هـ٣)، يقلل من عقابه، لأنه يزيد من استهلاكه، وعند وصوله إلى النقطة (هـ٣)، أي إلى حد

الكفاية (ك كَ)، فإن نيته إما أن تبقيه عند مستوى الثواب المعدوم عند النقطة (هـ٣)، أو ترفعه إلى مستوى الثواب الكبير عند النقطة (ث٣) .

يمثل مستوى العقاب الشديد (النار) الخط (ع١ ع٥). وسبب وجود بعض الأفراد عند هذا الخط لا يرجع إلى أنهم يستهلكون أكثر ممن يقفون عند الخط (ث١ ث٧)، وإنما لأنهم رفضوا تسليم أنفسهم لله، كما بيّنّا من قبل، وأولئك هم الذين يكذّبون بالدين ويَدّعون اليتيم، ولا يحضّون على طعام المسكين ويمنعون الماعون، وهم الذين قال عنهم الحق سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾[٨١].



وهكذا عبر أبواب الكتاب وفصوله تصاحبنا فكرة رئيسة هيَّ عامود الأمر وسنامه في حياة المسلم القديم والمعاصر، منذ أنزل الله كتابه العزيز على نبيه الكريم الذي أنطقه بالحكمة، تلك الفكرة التي تكمن في البعد عن

الإسراف وإن كان في المباحات، والنهي عن التبذير لارتباطه بالمحرمات، والتقلل من الدنيا، والإقبال على الآخرة، ولم نفرد القول إلا لآيات الله الكريمات، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والنذر من أقوال الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، ولو تتبعنا أقوال العلماء في الزهد لاتسع بنا المجال وفاق.

ثم يدهشك بعد كل هذا أن يفرح القوم بثقافة الاستهلاك، ثم بالفتح الأكبر ألا وهو انتقال العالم من ثقافة الاستهلاك إلى ثقافة الإستدامة التي تعني "تحقيق مستوى معيشة لائق للجميع الآن بدون تعريض احتياجات الأجيال المقبلة للخطر"، تلك الغاية التي لن يتم التوصل إليها إلا عبر الكثير من الاقتصاد أو التقلل في الاستهلاك وهو عين ما يدعو إليه الإسلام وله قصب السبق دون إدعاء أو فخر، فلقد توصل أكثر من ستين عالمًا ومفكرًا [٨٢]، بالأدلة العلمية إلى أن النظام العالمي الحالي القائم على الاستهلاك المفرط للموارد الطبيعية غير قابل للاستمرار وأنه سيؤدي إلى كوارث مدمرة.

المدهش أن الغرب نفسه ـ باعتراف الداعين إلى ثقافة الاستدامة ـ هو المسئول عن شراهة الإستهلاك لإنقاذهم من الكساد؛ ففي أربعينيات القرن العشرين، بدأت حكوماتهم تنظر إلى الاستهلاك على أنه المحرك لعملية النمو الاقتصادي، وكذلك الولايات المتحدة التي خرجت من الحرب العالمية الثانية باقتصاد قوي كثيف الإنتاج كان تشجيع الاستهلاك هو الحل الوحيد لتجنب وقوع الاقتصاد في كساد. وقد جندوا في سبيل تحقيق أهدافهم الإعلام وفن الإعلان، وتوظيف الأعياد الوطنية والدينية لكي تكون مواسم مبهرة للتسوق أو كما قال الاقتصادي الأمريكي فيكتور ليبو : (إن اقتصادنا الإنتاجي يتطلب بدرجة هائلة أن نجعل الاستهلاك هو أسلوبنا في الحياة، ويخوّل شراء السلع واستخدامها إلى طقوس نداوم على أدائها، ونلتمس رضاءنا الروحي، ورضا غرورنا في الاستهلاك، إننا في حاجة إلى استهلاك الأشياء وحرقها وبليها

وتبديلها بمعدل دائم الزيادة). ومن الولايات المتحدة انتشرت هذه النظرة إلى الاستهلاك لتغزو العالم بنجاح وسرعة ويسر.

وحين حاولوا البحث عن الحل لتنفيذ ثقافة الاستدامة، فوجدوه في (التقلل): الدعوة إلى حياة أكثر بساطة "الأقل هو الأكثر"، العمل لساعات أقل، اللانمو الإقتصادي. وحين جاهروا بالعلاج الناجع كان في: (فلسفة الزهد في المتع المادية والسعي نحو الامتلاء الروحي موجودة منذ أقدم العصور، دعت إليها الأديان ونادى بها الفلاسفة، واليوم تنادي بها الحركات التي تتبنى الاستدامة وتسعى لخلق مجتمع ما بعد الاستهلاك. تتصدى هذه الحركات للقناعات المادية التي نشرتها ثقافة الاستهلاك: قياس كل شيء بالمال، استغلال الناس واستغلال الكوكب لتحقيق منافع شخصية، والروح التنافسية التي تضع الناس في مواجهة بعضهم البعض، وتسعى بالمقابل لنشر قيم التعاون والرعاية والحياة البسيطة).

نعم.."الزهد" هو العلاج الناجع، وهو أول التصورات التي جاءت في الحوار المفتوح الأول حول مستقبل الاستدامة في العالم العربي بحضور نخبة من الباحثين والمفكرين العرب المعنيين بقضايا الاستدامة بأبعادها البيئية والاجتماعية والسياسية، والاتحاد الدولي لحماية الطبيعة المكتب الإقليمي لمنطقة غرب آسيا/الشرق الأوسط بالتعاون مع مكتبة الإسكندرية وبدعم من مؤسسة فورد العالمية، حيث أجمعوا على: المحافظة على الموارد والتركيز على ثقافة الزهد.

فهل انبرى باحث أو مفكر عربي مسلم[٨٣] ليؤكد ولو في سطرين يسجلهما التاريخ في التقرير الوارد والمسمى بـــ "تقرير حوار مستقبل الاستدامة في العالم العربي رؤية من الجنوب ٤حزيران ٢٠٠٨ مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية ـ مصر" فيقول أن الإسلام كدين كان سابقًا إلى تلك النظرة في ارتباط الزهد بالاقتصاد تحت ظل العقيدة؟!

إن الفقرة الإجمالية الواردة في "تقرير حالة العالم ٢٠١٠: من ثقافة الاستهلاك إلى ثقافة الاستدامة" تظلم الزهد في الإسلام كثيرًا حين تجعله فلسفة وهذه واحدة، والثانية حين تضمه إلى كافة الأديان السماوية والأرضية وهو مخالف لها تمامًا من حيث كونه تعبدًا لا وجهة نظر شخصية

أو كهنوتية، وحين كان متوازنًا في الإسلام تقشفًا في غيره، وقد يكون جبرًا في غيره، بينما في الإسلام يأتي اختيارًا، وقد يكون انعزالاً وتنسكًا ورهبنة في غيره، وفي الإسلام لاينفصل عن حياة الناس، وليس له طقوس تدل عليه، أو ممارسات ينفرد بها، وأخيرًا حين تجعله بشريًا فتضمه مع أقوال الفلاسفة، وهو الوارد وحيًا في كتاب الله تعالى وأحاديث نبيه صلى الله عليه وسلم، والغايات كما قلنا ناهيك عن الوسائل متباينة.

ولا أدل على اتفاق التقرير في جانب منه على الأقل مع مستويات الزهد، أن هناك ثلاثة مستويات للبساطة: المستوى العملي وهو أن يختار الإنسان استهلاك كمية أقل من السلع بناء على قناعته بأهمية ذلك وليس كنوع من الحرمان أو التقشف، وأن يصبح هذا سلوكه المعتاد، يليه المستوى الفلسفي عندما يبدأ الإنسان بالتفكير بعواقب سلوكه كمستهلك على الآخرين وعلى البيئة، ثم المستوى الاجتماعي عندما تتحول البساطة إلى سياسة اجتماعية تهدف إلى تقليص الفجوة بين الأغنياء والفقراء وتعزيز المساواة الاجتماعية.

إن التوافق الجزئي بين محتوى التنمية المستديمة ومعطيات الدين الإسلامي الحنيف يؤهل الثقافة العربية الإسلامية للعب دور هام في تكريس وتطبيق مبادئ الإستدامة، ليس فقط على صعيد المجتمعات العربية الإسلامية فحسب، وإنما أيضًا على مستوى المجتمع الإنساني ككل، في ظل عالمية الدين الإسلامي الموجه لكل البشر في هذا العالم، ووفق عالمية مفهوم التنمية المستديمة ومبادئها التي أقرتها حكومات العالم في أجندا 21 عام 1992 م [جدول أعمال القرن ٢١ للثقافة][٨٤]، وهذا ليس بسبب التوافق الجزئي فقط وإنما لأن الدين الإسلامي ومن ثم الثقافة العربية الإسلامية تطرح موضوع تحقيق نوعية حياة جيدة للسكان فوق هذا الكوكب بصورة أكثر شمولية وواقعية وموضوعية مما عليه الحال في التنمية المستديمة من جهة، وتوازن بين الجوانب المادية والروحية في هذا الطرح من جهة أخرى، ولاتقتصر على معالجة الجوانب المادية فقط كما في أدبيات التنمية المستديمة[٨٥].

أصبح الزهد حقيقة أممية واقعة لم يستأثر به الإقتصاد الإسلامي وحده بل تسيد الإقتصاد العالمي من خلال الانتقال إلى ثقافة الاستدامة وهجر ثقافة الاستهلاك، وأصبح الذين ينفرون منه وينكرونه على المستوى الديني بعامة والإسلامي بخاصة سيقبلونه ويقرونه ويوصون به في مناقشاتهم، ويتابعون تطبيقه، ويوصون بالأخذ به في نهاية اجتماعاتهم وتوصياتهم، بل سيكون منهاجًا لحياتهم ـ ما دام صار قرارًا عالميًا عولميًا ـ إن لم يكن تدينًا ففلسفة وثقافة، بينما يفوز المسلم بالتزامه منهاج الزهد في حياته تعبدًا لأوامر الله تعالى، وتمثلاً واقتداءٍ بسنة ومنهاج نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم .

وهم لا يدرون أنهم بموقفهم هذا وبما أشاروا به من "تقلل" صاروا دلالة على إعجاز القرآن المعجز في آياته التي كانت تدعو دومًا للتوسط والتقلل والتوازن، وإعجاز المنهاج النبوي في أقواله وأفعاله التي كانت تحض على ما كان يدعو إليه كتاب الله تعالى، وشهادة دامغة تؤكد صدق وصحة ما يدعو به وإليه الإسلام، لسعادة الإنسان في الدارين.

والمسلم حين يكون مستهلكًا فهي فطرة الله التي فطره الله عليها؛ فيتخذ الاستهلاك وسيلة نبيلة لغايات نبيلة، مثل القيام بما فرضه الله عليه من عبادات وطاعات يسعى في تحصيلها، وسعيٍ على العيش تنفيذًا لقانون الإستخلاف وعمارة الأرض بأمر الله تعالى، والتنعم بنعم الله المنعم سبحانه في غير سرف ولا ترف، كما أوجز ذلك المنهاج وفصله في آن الإمام محمد بن الحسن الشيباني: (أن المسألة ـ يقصد الشبع ـ صارت على أربعة أوجه: ففي مقدار ما يسد به رمقه ويتقوَّى على الطاعة هو مثاب غير معاقب، وفيما زاد على ذلك إلى حد الشبع، فهو مباح له محاسب على ذلك حسابًا يسيرًا، وفي قضاء الشهوات، ونيل اللذات من الحلال هو مرخص له على ذلك، مطالب بشكر النعمة وحق الجائعين، وفيما زاد على الشبع، فإن الأكل فوق الشبع حرام) [٨٦].

فالمسلم يعلم أنه يؤمن برسالة عالمية خالدة "الإسلام" الذي يلبى

متطلبات الحضارات القادمة والقائمة، بعقيدته السامية وتشريعه الإلهي العادل الذي يساوي بين الجميع .. ولكنه فوق هذا تنظيم قانوني مذهل ومتوازن، يحقق حاجات النفس الإنسانية، والمتطلبات المتغيرة للمجتمعات البشرية على تباينها، لكونه دينٌ رباني المنهج، رباني الغاية، رباني الوجهة، إنساني الطابع، يشمل كل مكان وكل زمان، ويصلح لكل مكان وكل زمان، دين واقعي ،قريب من واقع الناس والحياة، يعلم مشكلات الإنسان ماكان منها وما سيكون، فقدم الحلول السماوية الرسالة والأرضية التنفيذ، فجاء هذا الدين واضحاً سهلاً فى تعاليمه فى أوامره ونواهيه وفى عباداته ومعاملاته، يجمع بين الثبات والتطور، ليلائم دائماً حراك البشر اللامتناهى، ولهذا فقد أذعن المسلم لنداء ربه تعالى حين يأمره بالتوسط والاعتدال والتوازن وحق الأخوة والجماعة، عبر آياتٍ يتلوها ويتفهمها من كتاب الله تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[٨٧].
﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[٨٨].
﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾[٨٩].
﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[٩٠].
﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[٩١].

ولقد حفل تاريخ المسلمين في قديمهم والمعاصر بالنماذج الطيبة التي سارت على درب التقلل من الدنيا وحبًا في الآخرة، وذلك تأسيًا بقدوتهم وإمامهم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لكونه القدوة الحسنة للزاهدين إلى يوم الدين، والذي فاق زهده زهد من سبقوه وزهد من جاءوا بعده؛ فهو خلاصة زهد الزاهدين من ابتداء خلق السموات والأرض إلى أن تقوم الساعة.

ذلك لأنه قد حصل صلى الله عليه وسلم على الكمال في الزهد، وأنه ما من زاهد إلا وقد حصلت له هفوة في زهده من نظرٍ إلى الدنيا في بداية حياته

أو في وسطها أو في آخرها، أو أنه كان زاهدًا ثم أتته الدنيا من غير طلب منه فقبلها، ومن هنا تحصل الهفوات إلا من عصمه الله من النبيين وأصحابهم الميامين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

لكن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قد حصل على الكمال في الزهد، وهذا الكمال كان أتم ما يكون من نفس بشرية اكتحلت بإرادة ربانية وتمكين إلهي لكي يكون النبراس والقدوة لكل أحد جاء بعده، وذلك لأن زهد الزاهدين قبله أكتمل بوجوده حيث كان موضع لبنة واحدة في بيت معمور يأتي إليه جمع من الناس لمشاهدته فينظرون ويتطوفون بشرفاته ويعجبون به غير موضع لبنة واحدة فكان عليه الصلاة والسلام هو موضع تلك اللبنة لذلك البيت الذي هو في الحقيقة بيت الأنبياء لأن كل واحد منهم شارك في بنائه فصار زهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم هو ختام لزهد الأنبياء قبله وكمال زهد الزاهدين من غير الأنبياء.

وهو كذلك غاية الزهد لمن أتى بعده. فكل من أتى بعده من آله وأصحابه وأشياعه والتابعين ومن جاء بعدهم إلى يوم الدين إنما يغترفون من زهد تلك المشكاة التي تنير لهم الطريق[٩٢].

صلى الله وسلم على سيد الزهاد، وإمام الكل، وقدوة الخلق، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي دل أمته على خير الدنيا والآخرة، فاختار لها الزهد بمفهومه الصحيح منهاجًا لحياتها، قربى لربها، ومنجاةً لها من الفتن، وعاصم لها من الوقوع في الرزايا والبلايا، وأغلق بذلك أمامها أبواب المهالك من الغش، والسرقة، وأكل مال الناس بالباطل، وجلب المال من كل طريقٍ كان، وأبعدها عن دروب الحرام وشبهاته، وعن الحلف بالكذب، وعن الطمعِ فيما هو في أيدي الناس، وكساها بالزهد ثوب القناعة، والتعفف، والرضا، والسرور بما في أيديها، والتصدق ولو بالقليل، ورحمها من التعلق بالزائل، وارتكاب الرذائل، والشوق فيما ليس من وراءه طائل، وسكب في فؤادها حب الباقي سبحانه وتعالى، الحي الذي لايموت.

هوامش الباب الثالث:

[١] دكتور يوسف زيدان: قضايا العلوم الإنسانية، إشكالية المنهج ص٧.
[٢] المائدة: ٤٨.

[٣] الحديث: روى أبو دود الطيالسي في مسنده (ص ٥٨) ومن طريقه أحمد في المسند (٢٧٣/٤) بإسناد جيد من طريق حبيب بن سالِم.

[٤] دكتور حسن حنفي: قضايا العلوم الإنسانية، إشكالية المنهج ص٤٥.

[٥] الملكية في الإسلام: د.عيسى عبده، أحمد إسماعيل يحي، ص١٤١.
[٦] أنظر:دكتور محمد أحمد بيومي،علم الإجتماع الديني ومشكلات العالم الإسلامي، ص١٣٤ وأنظر، براين تيرنر:«علم الإجتماع والإسلام ـ دراسة نقدية لفكر ماكس فيبر» تعريب أبو بكر أحمد باقادر.
[٧] الملكية في الإسلام: د.عيسى عبده، أحمد إسماعيل يحي ص١٤١.
[٨] انظر: محمد نعمان: طريقة تعليم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأثر تعليماته على الأدب العربي. وأيضًا انظر: دكتور حسين السامرائي ودكتور ياسر خلف الشجيري: الملاحظة والخبرة في السنة النبوية، مجلة العلوم الإسلامية عدد (١) ربيع ثاني ١٤٣٠هـ كذلك انظر: عبدالفتاح أبو غده: أسلوب المعلم وأساليبه في التعليم، المطبوعات الإسلامية، حلب

١٤١٦هـ. وأخيرًا انظر: أطباء يطلقون حملة شعبية ضد الغضب والتوتر، مجلة الوعي الإسلامي، العدد: ٥٣٢ بتاريخ ٣٩٢٠١٠.
[٩]محمد الغزالي، ركائز الإيمان بين العقل والقلب ص ١٩٥.
[١٠] الدكتور محمد علي الهاشمي: شخصية المسلم ص٢٧٨.
[١١] موقع الدكتور رامز طه للطب النفسي.
[١٢]الإمام ابن القيم: "عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين".
[١٣]صحيح البخاري: (كِتَاب الْحَجِّ) أَبْوَابُ الْمُحْصَرِ وَجَزَاءِ الصَّيْدِ – حديث رقم ٢٩٤١.
[١٤]رواه مسلم (٣١٤).
[١٥] الأدب المفرد للبخاري: (الأدب المفرد للبخاري) بَابُ الْجُلُوسِ عَلَى السَّرِيرِ – حديث رقم ١١٤٥.
[١٦]شعب الإيمان للبيهقي (الرَّابِعَ عَشَرَ مِنْ شُعَبِ الإِيمَانِ وَهُوَ بَابٌ فَصْلٌ فِي زُهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ) – حديث رقم ١٣٩١.
[١٧] جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير سورة الفرقان) القول في تأويل قوله تعالى: ''انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا'' - رقم الحديث ٢٤٠٥٣.
[١٨] أخرجه البخاري (١١٦٣).
[١٩]صحيح مسلم: (كِتَاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ) بَاب مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ – حديث رقم ٥٢٦٢.
[٢٠] متفقٌ عليه :البخاري (٦٤٣٧) ومسلم (١٠٤٩).
[٢١] رواه الترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم ٣٣١٣. صحيح ابن ماجه جـ ٢ ص٣٩٣.
[٢٢]ص ٣٩٠ برقم ٢٣٨٠، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وحسنه الحافظ في الفتح.
[٢٣] شعب الإيمان للبيهقي الْحَادِي وَالسَّبْعُونَ مِنْ شُعَبِ الإِيمَانِ – حديث رقم ٩٦٦٨.
[٢٤] المستدرك على الصحيحين (كِتَابُ مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ...) ذِكْرُ فَضَائِلِ الْقَبَائِلِ – حديث رقم (٧٢١٣).
[٢٥]رواه مسلم رقم : (٧٣٤٦).
[٢٦]"الأنوار في شمائل النبي المختار"، بَابٌ فِي زُهْدِهِ وَإِعْرَاضِهِ عَنِ الدُّنْيَا صَلَّى الله عليه وسلم – حديث رقم:٤٥٧.

[٢٧] حديث حسن رواه ابن ماجة (٤١٠٢)وغيره بأسانيد حسنة، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٤٤).
[٢٨] ابن أبي الدنيا: كتاب إصلاح المال، باب فضل المال، الحديث رقم: (58).

[٢٩] انظر: الرد على البكري، لابن تيمية، ص ٣٣٧.
[٣٠] ابن تيمية الفتاوى، (٣٩/١).

[٣١] دكتور عماد الدين خليل:البعد الاجتماعي في مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم، العدد (٤) مجلة المسلم المعاصر، ديسمبر ١٩٧٥.
[٣٢]محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا ص ١٣٦-١٣٧.
[٣٣]الدكتور محمد عمارة، رجال عصر النبوة بمجلة المنار الجديد العد ٣٩/ ٢٠٠٧.
[٣٤]الدكتور محمد بديع شريف، المساواة في الإسلام ص٤٧-٤٩.
[٣٥] مصنف بن أبي شيبة،"كتاب الزهد – ما ذُكِرَ في زهد الأنبياء وكلامهم"، رقم (٣٣٧٥٧).
[٣٦] الدِرَّةُ: السوط "معجم المعاني الجامع"، وقيل: العصا، وهو الأشهر، قال عامرالشَّعْبِيُّ: (كَانَتْ دِرَّةُ عُمَرَ أَهْيَبُ مِنْ سَيْفِ الْحَجَّاجِ).
[٣٧] إصلاح المال لابن أبي الدنيا ص١٠٩.
[٣٨] رواه البخاري (٥٤١٤).
[٣٩] تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للإمام الحافظ أبي العلاء محمد عبد الرحمن ابن عبد الرحيم المباركفوري، كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (باب ما جاء في الهم في الدنيا وحبها)، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.
[٤٠] رواه ابن ماجه (٤١٠٤)، وصححه الشيخ الألباني في"صحيح ابن ماجة" (٣٣١٢)، و "صحيح الترغيب"(٣٣٢٥).
[٤١] أخرجه أحمد ٥٩/٤ (١٦٦٩٤) صحيح الترغيب والترهيب ٢٩/١ .
[٤٢] أنظر كتابنا: نساء الرسول صلى الله عليه وسلم، شبكة الألوكة.
[٤٣] فولتير (Voltaire) كاتب وفيلسوف فرنسي عاش في عصر التنوير.

[٤٤] محمد الغزالى، ركائز الإيمان بين العقل والقلب ص١٩٥.

[٤٥] رواه أبو داود وصححه الألباني.

[٤٦]السلسلة الصحيحة [جزء ٥ - صفحة ٦٣٤] ٢٤٨٤ - (صحيح)
صحيح الترغيب والترهيب [جزء ٣ - صفحة ١٥٤] ٣٢٨٧ - (حسن لغيره).
[٤٧] رواه الترمذى فى الزهد (٢٣٧٧) وابن ماجه فى الزهد (١٣٧٣).

[٤٨]انظر: ابن القيم في زاد المعاد (١ /١٤٢).

[٤٩] رواه أحمد (٢٣٧٢) والترمذي (٢٤٧٠) وصححه الألباني في "مشكاة المصابيح" رقم (١٩١٩).

[٥٠] أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، رقم: (٢٦٥٥٧)، صحيح، صححه شعيب الأرنؤوط.

[٥١]رواه الترمذي في صفة القيامة رقم ٢٤٦٥، وصححه الألباني (وكان في دعائه يحذر منها بقوله عليه السلام :"وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا) "رواه الترمذي وحسنه ووافقه الألباني.

[٥٢] محمد الغزالي: فقه السيرة،ص٣٤٥.

[٥٣] أبو الحسن الندوي: السيرة النبوية، ط٨، ص٤٣٤.

[٥٤] مصطفى صادق الرافعي: من وحي القلم، الجزء الثاني ص٥٧ - ٦٣.
[٥٥] رواه الحاكم في المستدرك (١٥/٤) وسكت عن الذهبي في تلخيصه.
[٥٦]خالد محمد خالد: أبناء الرسول في كربلاء، ص ١٣.
[٥٧] أخرجه أبو داود (رقم٢١١٨)، والنسائي (رقم ٣٣٧٥،٣٣٧٦)، وابن حبان في صحيحه (رقم ٦٩٤٥)، والضياء في المختارة (٢٣١/٢).
[٥٨] أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢٠،٢٢/١٠)، وأبو يعلى في مسنده (رقم ٣٥٣)، والضياء مصحِّحًا له بإخراجه في المختارة (٣٠٧/٢ رقم ٦٨٤) .
[٥٩] أخرجه أبو داود (رقم ٢٠٩٩)، والترمذي وصحّحه (رقم ١١١٤م)، والنسائي (رقم ٣٣٤٩)، وابن ماجه (رقم١٨٨٧)، وابن حبان (رقم ٤٦٢٠)، والحاكم وصححه (١٧٥/٢-١٧٦)، والضياء في المختارة

(١/١١٤-٤١٥)، وانظر: التاريخ الأوسط للبخاري (٤/٥١-٥٢)، والعلل للدارقطني 2/232-240) رقم (٢٤١)
[٦٠] رواه أحمد.
[٦١](متفق عليه).
[٦٢]البخاري ٢٤٧١.
[٦٣] مسلم ٢١٠٧.
[٦٤] (رواه أبو داود).
[٦٥] أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ج٤ ص٢٩١.
[٦٦] السيد إبراهيم: "لماذا بكت فاطمة؟"، شبكة الألوكة.
[٦٧] القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى ج١،ص٨٧.
[٦٨] البخاري برقْم (٤٤٣٣، ٤٤٣٤)، ومسلم (٢٤٥٠) واللفظ لمسلم.
[٦٩] البخاري برقْم (٤٤٣٣، ٤٤٣٤)، ومسلم (٢٤٥٠).

[٧٠] دكتور عبد الحليم عويس: التسامح والزهد في الإسلام، شبكة الألوكة.

[٧١] أنظر: أحمد بن عمر بازمول: حجية الأحاديث النبوية الواردة في الطب والعلاج، فتوى الدكتور محمد سليمان الأشقر في الاحتجاج بالأحاديث النبوية في المسائل الطبية.

[٧٢] زاد المعاد (٤/٢٨٤).

[٧٣] صحيح الترمذي - كتاب الزهد - رقم: (٢٣٠٢).

[٧٤] ابن القيم: "الطب النبوي"، ص١٣.

[٧٥] زاد المعاد، ٤/ ٣١٣.

[٧٦] دكتور أحمد أبوالفتوح علي الناقة: قياس أثر المستوى العام للأسعار والأرصدة الحقيقية على سعر صرف الجنيه المصري مقابل الدولار الأمريكي: في ضوء المسلمات الأساسية للاقتصاد الإسلامي، ص١١، طبعة تمهيدية، المؤتمر العالمي الثالث للإقتصاد الإسلامي، جامعة أم القرى.

[٧٧] أنظر: دكتورة نعمت عبد اللطيف مشهور: الإستهلاك، الفصل السابع، موسوعة الإدارة العربية الإسلامية، إدارة الإقتصاد العربي الإسلامي. الدكتورمحمد أنس الزرقا: صياغة إسلامية لدالة المصلحة الاجتماعية، مجلة المسلم المعاصر، العدد (١٦)، ديسمبر ١٩٧٨.

[٧٨]البخاري (٥٥) ومسلم (١٠٠٢).

[٧٩]حديث حسن: أخرجه النسائي (٥/ ٥٩، رقم ٢٥٢٧)، وابن حبان (٨/ ١٣٥، رقم ٣٣٤٧)، والحاكم (١/ ٥٧٦، رقم ١٥١٩)، والبيهقي (١٨١/٤، ٧٥٦٨)، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم: ٣٦٠٦.

[٨٠] سورة الإنسان: (٨-٩).

[٨١] يس: (٤٧).

[٨٢] تقرير حالة الأرض ٢٠١٠ State of the World الصادر عن مؤسسة مرصد الأرض World Watch Institute التي مقرها واشنطن.

[٨٣] كتب أكثر من كاتب عربي دراسات تبين أسبقية الإسلام في هذا الشأن، مثل: صالح بن عبد الرحمن الحصين، "تعليق على الاستدامة البيئية"، مايو٢٠١٢، سليمان عبد العزيز الأشعل "الاستدامة البيئية بين الإسلام والتنمية" بوابة الشرق في مارس ٢٠١٣، ماجدة أبو زنط وعثمان محمد غنيم: التنمية المستديمة من منظور الثقافة العربية الإسلامية، دراسات، العلوم الإدارية، المجّلد 36 ، العدد1، 2009.

[٨٤]مؤتمر الأرض الذي انعقد في مدينة ريودي جانيرو البرازيلية عام 1992، وتمخضت عنه (أجندا21) "Agenda 21" .

[٨٥] ماجدة أبو زنط وعثمان محمد غنيم: التنمية المستديمة من منظور الثقافة العربية الإسلامية، دراسات، العلوم الإدارية، المجّلد 36 ، العدد1، 2009.

[٨٦] محمد بن الحسن الشيباني: الإكتساب في الرزق المستطاب، ط١، ص٧٠، تحقيق محمود عرنوس، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٦.
[٨٧] الأعراف: ٣١.
[٨٨] الفرقان: ٦٧.
[٨٩] الإسراء: ٢٩.
[٩٠] الأعراف: ٣٢.
[٩١] القصص: ٧٧.
[٩٢] دكتور محمد علي عزيز: زهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، خاص لموقع اليمني الأمريكي.

ثبت بأهم المراجـع:

أولاً : القرآن الكريـــــم .
ثانياً : كتب السنة الواردة بالهوامش والحواشي.

<u>ثالثًا : تفاسير القرآن الكريم:</u>
القرطبي ــ السعدي .

<u>رابعًا : المصادر والمراجع التالية :</u>

ـ أبو الحسن الندوى: "سيرة خاتم النبيين". الطبعة الثانية، دارالشروق ، مصر ١٩٨٨ .
ـ أبو حامد الغزالى: "إحياء علوم الدين"، مكتبة مصر ١٩٩٨ .
ـ أبو حامدالغزالي: "ميزان العمل"، ط ١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤.
ـ أحمد أبو الفتوح علي الناقة (دكتور): "قياس أثر المستوى العام للأسعار والأرصدة الحقيقية على سعر صرف الجنيه المصري مقابل الدولار الأمريكي: في ضوء المسلمات الأساسية للاقتصاد الإسلامي". ص١١، طبعة تمهيدية، المؤتمر العالمي الثالث للإقتصاد الإسلامي، جامعة أم القرى.

ـ أحمد بن عمر بازمول: "حجية الأحاديث النبوية الواردة في الطب والعلاج".دار الآثارـ مصر، مجالس الهدي ـ الجزائر،٢٠٠٥.

ـ أحمد محمد الحوفى (دكتور): "من أخلاق النبى". المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة،١٩٩٤.

ــ إبراهيم الجبالي: "من الأدب النبوي"، ملحق مجلة الأزهر ربيع أول ١٤٢٧هـ.

ـ إبراهيم مدكور (دكتور): "في الفكر الإسلامي"، مكتبة الأسرة ٢٠٠٨.القاهرة.

ـ ابن الجوزي: "صيد الخاطر"، تحقيق عبد الله المنشاوي ومحمد السيد أبو زيد، مكتبة الإيمان.المنصورة.

ـ ابن القيم: "مدارج السالكين"، دار الكتاب العربي، القاهرة، ٢٠٠٣.

ـ ابن القيم:"عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين"، تحقيق إسماعيل بن غازي، ط١، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع،جدة، ١٤٢٩هـ.

ـ ابن القيم: "زاد المعاد في خير هدي العباد".تنسيق وترتيب الدكتور السيد الجميلي، دار الفكر العربي، بيروت.

ـ ابن القيم: "الطب النبوي". تحقيق عبد الغني عبد الخالق، دار الفكر العربي، بيروت.

ـ ابن تيمية: "مجموع الفتاوى"، دار المنار،ط١، القاهرة، ١٩٩٢.

ـ ابن حجر: "فتح الباري شرح صحيح البخاري"، المكتبة السلفية، القاهرة.

ـ ابن حجر العسقلاني: "التلخيص الحبير"، مؤسسة قرطبة، ١٩٩٥.

ـ ابن رجب الحنبلي: "جامع العلوم والحكم". طبعة أولى، تحقيق عبدالله المنشاوي، مكتبة للإيمان، المنصورة، ١٩٩٦.

ـ السيد إبراهيم أحمد: نساء الرسول صلى الله عليه وسلم، شبكة الألوكة.

ـ الجويني: "غياث الأمم في التياث الظلم"، مكتبة إمام الحرمين.

ـ السيد عطية عبد الواحد (دكتور): "مقدمة في علم الإقتصاد" ،القاهرة، ١٩٩٥.

ـ المسعودي: "مروج الذهب"، بيروت،١٩٦٥.

- القاضى عياض : "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" .تحقيق أحمد فريد المزيدى. الطبعة الأولى، المكتبة التوفيقية، القاهرة ١٩٩٣.

ـ خالد بن عبد الرحمن الشايع: "الحياة البيتية للنبي صلى الله عليه وسلم"، دار بلنسية، الرياض.

ـ صبحي الصالح (دكتور): علوم الحديث ومصطلحه، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٩ م.

ـ طه حبيشي (دكتور): "ضلالات منكري السنة". مطبعة رشوان، القاهرة. ٢٠٠٦.

ـ فتحى رضوان: "محمد الثائر الأعظم". كتاب الهلال ، مصر١٩٩٤ .

ـ ماجدة أبو زنط وعثمان محمد غنيم: "التنمية المستديمة من منظور الثقافة العربية الإسلامية"، دراسات العلوم الإدارية، المجّلد 36 ، العدد1، 2009.

ـ محمد أبو زهرة (دكتور): "خاتم النبيين". دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٧.

ـ محمد أحمد بيومي (دكتور): "علم الإجتماع الديني ومشكلات العالم الإسلامي".دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٧.

ـ محمد أمين شيخو: "حقيقة محمد في القرن العشرين"، مكتبة البشير. دمشق ٢٠٠٠.

ـ محمد الغزالى: "ركائز الإيمان بين العقل والقلب". مكتبة الأسرة ، مصر٢٠٠١.

ـ محمد الغزالي: "الطريق من هنا".دار الشروق، القاهرة،١٩٧٧.

ـ محمد الغزالي: "فقه السيرة"، دار الشروق. القاهرة، ٢٠٠٠.

ـ محمد الغزالى: "الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا". دارالشروق ، مصر١٩٩٧.

ـ محمد بديع شريف (دكتور): "المساواة في الإسلام". دار المعارف، مصر ١٩٧٧.

ـ محمد بن الحسن الشيباني: "الإكتساب في الرزق المستطاب"، ط١، تحقيق محمود عرنوس، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٦.

ـ محمد بن فارس الجميل (دكتور): "الأطعمة والأشربة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم"، حوليات كلية الآداب، الحولية السابعة عشرة، الكويت. ١٩٩٧.
ـ محمد عبد الحليم عمر(دكتور): "موقف الإسلام من الفقر والفقراء بالمقارنة مع النظم المعاصرة السائدة".موسوعة الاقتصاد الإسلامي.

ـ محمد عبد الستار عثمان (دكتور): "المدينة الإسلامية"، عالم المعرفة ع ١٢٨، أغسطس١٩٨٨، الكويت.

ـ محمد علي الهاشمي(دكتور): شخصية المسلم، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، المملكة العربية السعودية ١٤٢٥ هـ.
ـ محمد نعمان: طريقة تعليم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأثر تعليماته على الأدب العربي(رسالة دكتوراه)، جامعة لبشاور، باكستان،١٩٩٧.

ـ محمود حمدي زقزوق (دكتور): "مقدمة في الفلسفة الإسلامية"، دار الفكر العربي، ٢٠٠٣ القاهرة

ـ مصطفى أحمد علي نوارج: "الفقر وموقف الشريعة الإسلامية منه"، قضايا إسلامية معاصرة،٢٠١٢.

ـ مصطفى صادق الرافعي: "وحي القلم"، راجعه واعتنى به دكتور درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت.

ـ مكتبة حقوق الإنسان، جامعة منيسوتا، اللجنة المعنية بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية،الدورة الخامسة والعشرين٢٠٠١: "الفقر والعهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، بيان اللجنة المعنية بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية أمام مؤتمر الأمم المتحدة الثالث المعني بأقل البلدان نموًا".
ـ ميشيل تشوسودوفسكي: "عولمة الفقر" ترجمة محمد مستجير مصطفى، إنسانيات مكتبة الأسرة ٢٠٠٢، القاهرة.

ـ نعمت عبد اللطيف مشهور(دكتور): "الاستهلاك"، الفصل السابع، موسوعة الإدارة العربية الإسلامية، إدارة الإقتصاد العربي الإسلامي.
ـ نظمى لوقا (دكتور): "محمد فى حياته الخاصة" . مكتبة غريب ، مصر١٩٧٨ .
ـ عبد الحليم عويس (دكتور): "دراسة حديثة عن الاقتصاد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم"، عرض وتلخيص أحمد مصطفى عبد الله.
ـ عبدالفتاح أبو غده: "أسلوب المعلم وأساليبه في التعليم"، المطبوعات الإسلامية، حلب ١٤١٦هـ.

ـ عبدالفتاح محمد السمان: "تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع أمواله كسبًا (مصادر أموال النبي صلى الله عليه وسلم)"، رسالة ماجستير، معهد الدعوة الجامعي للدراسات الإسلامية ٢٠٠٩-٢٠١٠م.

ـ عبد الفتاح محمد السمان: "دراسة موضوعية للسيرة المالية للنبي صلى الله عليه وسلم"، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في الإقتصاد الإسلامي، معهد الدعوة الجامعي للدراسات الإسلامية، بيروت ٢٠١٣.

ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: "بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار"، الطبعة الرابعة، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية.

ـ عيسى عبده (دكتور)، أحمد إسماعيل يحي: "الملكية في الإسلام"، دار المعارف، مصر،١٩٨٤.
ـ يوسف زيدان (دكتور)، وآخرون: "قضايا العلوم الإنسانية، إشكالية المنهج"،سلسلة الفلسفة والعلم، وزارة الثقافة المصرية ١٩٩٦.



السيد إبراهيم أحمد

ـ حاصل على دبلوم الدراسات العليا فى المحاسبة المالية، جامعة عين شمس بجمهورية مصر العربية، ودبلوم الدراسات العليا بالمعهد العالى للدراسات الاسلامية بالقاهرة، وبماجستير الإقتصاد الإسلامي.

ـ عضو في إتحاد الكتاب والمثقفين العرب، وشعبة المبدعين العرب التابعة لجامعة الدول العربية،ومنسق إتحاد المثقفين العرب، وعضو مؤسس بمؤسسة الإتحاد العالمي للثقافة والآداب، ومن كتاب ومفكري شبكة الألوكة، والمختار الإسلامي، ومكتبة صيد الفوائد العالمية، ورابطة أدباء الشام، ودار ناشري، وعضو بتجمع ناشرون.

ـ محرر صحفي بجريدة البيان العربى، وجريدة فرسان السويس، وجريدة حديث البلد.

ـ الوظائف:

ــ عمل مديرًا ماليًا وإداريًا بكبريات شركات السياحة في مصر والشرق الأوسط، ثم مارس العمل الصحفي من خلال جرائد البيان العربي، وفرسان السويس، وحديث البلد.

ـــ نال شهادات تقدير من إتحاد الكتاب والمثقفين العرب، وشبكة النور "المختار الإسلامي".

ـــ تنشر أعماله: مجلة الرباط الأدبى التى تصدر عن رابطة الأدب الإسلامى العالمية، شبكة الألوكة، دار ناشري للنشر الإلكتروني، شبكة النور "المختار الإسلامي"، مجلة الكلمة الجديدة،رابطة أدباء الشام، المستقبل، دنيا الرأي، شبكة أعلام القدس، مجلة أخبار الثقافة الجزائرية، الأهرام القاهرية، وصحيفة الحوار والمحور الجزائريتين، وغيرها.......

مساهماته المرئية:

ـــ قدم الأديب السيد إبراهيم أكثر من ثلاثين حلقة بقناة النيل التعليمية المصرية مأخوذة من مؤلفاته.

ـ أعد مائة حلقة من برنامج :''مع أسماء الله الحسنى .. فهمٌ وذكر''، وكذا سهرات تليفزيونية عن شهر رمضان الكريم.

ــ أعد عدداً من البرامج الدينية لبعض القنوات، مثل: واحة المستغفرين، لقاء الإيمان، غير كليب عن مناسك الحج، وكليب فى الدفاع عن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، وشريط دينى للأطفال.

ـــ اعتمدت الجامعة الإسلامية العالمية بالمدينة المنورة، وجامعة الخليل بفلسطين المحتلة، بعض مؤلفاته كمراجع أكاديمية أدرجتها في رسائل الدكتوراه الصادرة عنهما.

ـــ فاز بمسابقة قصص على الهواء بإذاعة هيئة الإذاعة البريطانية BBC والتي قدمتها مسموعة من خلال البرنامج، بالاشتراك مع مجلة العربى الكويتية في مايو ٢٠١٠ عن قصته: (القطار)، والتي اختارها الناقد البحريني الكبير فهد حسين، والذي قال عنها: (قصة فنية تعاملت مع شخصيتين رئيسيتين لإيمان القاص بقدرة القصة على طبيعة استيعاب الشخصيات في القصة، بلغةٍ قصصية جميلة، وتقنيةٍ تعاملت مع القص بشكل فني. وضحت فكرة البُعد التراثي في الفكر التقليدي للعائلات في المجتمع).

ــــ قدمت الدكتورة الأردنية ديانا رحيل أستاذ النقد الأدبي الحديث بجامعة اليرموك وفيلادلفيا دراسة نقدية عن المجموعة القصصية ككل، نشرتها بجريدة الدستور الأردنية، بعنوان: الكتابة ومصافحة

البؤس الاجتماعي ـ قراءة في مجموعة "طقوس للعودة" للكاتب السيد إبراهيم أحمد.
ـ كتبت عنه الباحثة والصحفية ندى السيد دراسة بعنوان: "المرأة في أدب السيد إبراهيم".

ـ ترجمت بعض أعماله إلى اللغة الإنجليزية.

ـ شارك في تحكيم بعض المسابقات الأدبية بالمملكة المغربية عبر منتديات دواوين الدار البيضاء، وحضور بعض الفعاليات الأدبية والفنية مع بعض أدباء وفناني مصر في عدة محافظات مصرية.

ـــ قدم العديد من الدراسات القيمة في النقد الأدبي من خلال تقديم دراسات عن إنتاج بعض الشعراء والروائيين المصريين والعرب منشورة في أكثر من مجلة ودورية علمية.

ـــ أقام معه الشاعر الجزائري ياسين عرعار حوارًا سياسيًا مطولاً على صفحة كاملة بجريدة الحوار الجزائرية، وكذا أقام مجموعة من الأدباء والمثقفين العرب حوارًا مطولاً تناول العديد من القضايا المتنوعة الثقافية والسياسية والأدبية والوطنية تحت عنوان: "الحوار مع الأديب المصري المتألق السيد إبراهيم أحمد".

ـ تغنى بقصائده وأغنياته الدينية الكثير من المبتهلين بالقنوات الفضائية الإسلامية، كما بثتها بعض الإذاعات، و كذلك قدمتها دار الأوبرا المصرية.

ـ إصداراته:

تتناول كتابات الأديب السيد إبراهيم أحمد موضوعات عدة؛ ذلك أن كتبه ودراساته ومقالاته ومحاوراته تتنوع بين الأدب والدين والسياسة، وهذا ما نلحظه عند تصفح عناوينها، ومنها:

****في مجال الدين والدراسات الدينية:**

-كتاب: "المعجزة المحمدية" .. دار نور للنشر، المنصورة.
-كتاب: "محمد صلى الله عليه وسلم .. كما لم تعرفوه".. دار دوِّن للنشر، القاهرة.
-موسوعة : "سياحة الوجدان فى رحاب القرآن".. صادر مكتبة صيد الفوائد العالمية.
ـــ كتاب: "نساء في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم".. شبكة الألوكة.
ـــ كتاب: "حبًا في أمي عائشة".. شبكة الألوكة.
ـــ كتاب: "سيظل رسول الله صلى الله عليه وسلم ..مهما أساؤوا"..صادر عن دار ناشري بالكويت.
ـ كتاب: "رسول الله صلى الله عليه وسلم حيٌّ في قلوبنا"..صادر عن مكتبة صيد الفوائد العالمية.

**** في مجال الأدب:**

- مجموعة قصصية (طقوس للعودة) .. صادر عن دار ناشري بالكويت.
ـــ ديوان شعر بالعامية المصرية بعنوان: "إلا الوطن".. صادر عن دار مصر اليوم، القاهرة.
ـــ ديوان شعر للأطفال: "نادر يبحث عن السعادة".. صادر عن دار مصر اليوم بالقاهرة.
ـــ مسرحية: "المنعطف الأخير".. صادرة عن مجلة الفرجة المسرحية بالمملكة المغربية.
ـ له العديد من المشاركات والحضور من خلال برامج قناة النيل الثقافية، وقناة النيل للأخبار، وقناة القنال، وبعض القنوات الدينية.

ـ تنشر أعماله: [شبكة الألوكة، مكتبة صيد الفوائد، رابطة أدباء الشام ، دار ناشرى للنشر الالكترونى، مجلة الرباط الأدبى التى تصدرها رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ،المستقبل، دنيا الرأى، دنيا الوطن، مجلة الجيل، الأهرام، الفجر نيوز، الواقع، الدلتا، مجلة الفكر الحر، صحيفة الشرق القطرية، المختار الإسلامي، مقالاتي، مكتوب، شبكة أعلام القدس، ألوان عربية، مجلة رؤى مصرية].

ـ للإتصال بالكاتب :

– elsayedebrahim1@hotmail.com
– elsayedebrahim22@gmail.com
– elsayedebrahim22@yahoo.com
ـ الهاتف : ٠٠٢٠١٠٠٠٧٠٢٢٨٢

ـ الموقع :

http://kenanaonline.com/elsayedebrahim

ـ المدونة:

http://elsayedebrahim22gmail.blogspot.com

ـ الفيس : http://www.facebook.com/profile.php?id=100000789262267

ـ تويتر: https://twitter.com/_239498491495